سلمى اليانقي
سراب و ضباب
سراب و ضباب
سراب و ضباب
سراب و ضباب
سراب و ضباب
سراب و ضباب
سراب و ضباب
سراب و ضباب
رواية

سلمى اليانقي

سراب وضباب

تقديم

الأستاذ حمّادي القسمطيني

رواية

الإهـــــــداء

إلـى كـلّ مـن يـستعين بمـرآة الـماضي لإصـلاح الحـاضر والمــستقبل

إلـى كـلّ مـن يسـعى إلى السّمـوّ بـبلده والـوطن الـعربيّ نحـو مـستقبل أفـضل

إلى كلّ مـن سـاعدني حـتّى تصـدر بـاكورة أعمـالي عـلى المسـتوى المـتأمّل

تقديـــــم

رواية "سراب وضباب" للكاتبة الواعدة "سلمى اليانقي" حملَت بين طيّاتها ما يشهد لصاحبتها بامتلاك أفانين الخطاب الرّوائيّ على حداثة سنّها وتجربتها، فالمتفحّص للنّصّ المتبصّر لما ورد في ثناياه يقف عند قدرة المؤلّفة على تنسيل الأحداث بعضها من بعض في غير تعثّر أو تداخل يُبهم الحبكة ومداليلها فضلا عن صياغتها في لغة قصصيّة سلسة، قاطعة مع كلّ أشكال التّعقيد والتّكلّف.

إنّ الخطاب انبنى على ثنائيّات أمّنَت صيرورة أحداثه وتناميها تناميا صعّادا في غير تهافت ولا عجلة. لقد انفتحَت الرّواية على السّرد الآنيّ لترتمي في أحضان السّرد الإسترجاعيّ لتعود إلى الرّاهنيّة حين عَرَف "صالح" أنّ "رقيّة" أخته وانتقل لتوّه من الحديقة في رفقة "مريم" لاحتضان شقيقته.

الرّواية ذاتها جمعَت المأساة الفرديّة وإن تعدّدَت بتعدّد الشّخصيّات (سُكَيْنة، خديجة، رقيّة، فاطمة، عائشة، باسكال، صالح وفرانسوا...) إلى المأساة الجماعيّة الّتي جسّمها الاستعمار الفرنسيّ لِتونس. كما نطق المَتْن السّرديّ بالتّداخل الطّريف بين ما هو إلى اليأس المطبق وما هو إلى الأمل المنشود وذلك بفضل قدرة الكاتبة على تحويل القتامة رحما خصبا تنشأ من لدنه مؤثّرات الحياة القزحيّة "سيرتسم قوس قزح في السّماء باسطا ألوانه الجميلة على الكون".

لقد كانت الثّنائيّات المتقاطبة عديدة ولكنّها بقدر تقاطبها وثرائها بقدر انطلاقها من بؤرة نصّيّة ظلّت تنطلق منها لتعود إليها، هذه البؤرة الحدثيّة هي "محنة المرأة العربيّة" محنة صنعتها ذهنيّة ذكوريّة. ولئن تقلّصَت باعتراف الكاتبة نفسها لأنّها رصدَت تخصّص

رقيّة في الطّبّ واشتغال مريم على علْم النّفس الاجتماعي فإنّها لا تزال.

إنّ تناول "سلمى" لمثل هذه التّيمة رغم زخم ما قيل فيها وما كتب لدليل على أنّها ناشئة ترنو إلى القضاء على ما بقي من الأسرة البطريركية وهو الدّليل على نجاحها في شدّ القارئ إلى نصّها بما توفّر عليه إلى مواصلة قراءته بحكم تنوّع آليّات التّشويق فيه كخروجها بها من السّرد الأصليّ إلى المضمّن ومن تأجيل الإجابات ومن ثمّة تأجيل لذّة القراءة المتعجّلة للنّهايات.

إنّ رواية "سراب وضباب" هي رواية الانتقال من العدم إلى بداية تلمّس الطّريق. هي حكاية "سلمى" مع الكتابة، حكاية انتقالها من صفر الكتابة إلى اقتحامها والتّبشير بكتابة أفضل في قادم الإنتاج.

الأستاذ حمّادي القسمطيني

I

الفتاة رائعة حقّا.. منذ رأيتها للوهلة الأولى.. أدركت أنّها شخصيّة تستحقّ الاحترام و الاهتمام.. عبثا حاولت الاقتراب منها مرارا.. كانت مأساتي مسيطرة على كلّ عقلي.. أ تعلم؟ حينما تقابلنا لأوّل مرّة عرفت أنّها الفتاة الّتي لطالما تبلورت صورتها في مخيّلتي.. صورة الفتاة العربيّة المحترمة الّتي لا تضع نقابا لتخفي ملامح وجهها بل تضعه حتّى تستر ملامح شخصيّتها.. نقاب القوّة والعلم والثّقافة.. أتعرف يا فرانسوا؟ حينما أريد أن ألخّص مأساتي أستطيع أن أقول أنّها البحث عن المرأة العربيّة المثاليّة الّتي تفرض على النّاس احترامها دون وضع حجاب يستر وجهها ولا لحاف يخفي جسمها ولا جلوس في البيت يمحو وجودها من العالم.. عالم أختي الّتي راحت ضحيّة جبروت والدي وتعسّفه وكنت أنا السّبب!

* * *

فتحتُ عيني على الدّنيا لأجد نفسي يتيم الأمّ وأخا لفتاة تكبرني بعقد كامل ومع أبٍ وفّر لي كلّ أسباب الرّاحة والأمان..

أذكر أنّ أختي سُكَيْنَة كانت مثالا للفتاة الطّيّعة الّتي لا تعصي لي ولا لأبي أمرا.. كانت تغسل وتكنس وتطبخ..

أذكر أنّ أبي كان مثالا للرّجل الجبّار الّذي يريد لطلباته أن تحضر دون أن ينبس ببنت شفة وأذكر أنّه كان يحبّني كثيرا ويعاملني برفق ولين ولا يرفض لي طلبا بعكس معاملته لسُكَيْنة الّتي كان دائما يصرخ في وجهها ويقسو عليها لأبسط الهنّات بل قد يضطرّها لتحمّل تبعات أخطاء ارتكبتها..

أذكر وأنا في سنّ الخامسة من عمري كسرت مزهريّة ذات حظوة خاصّة لدى والدي.. لقد حُفرت تلك اللّيلة في ذهني كوشم ولم يمحها حبّ أبي لي حتّى بعد وفاته.. حينما أبت أختي إلاّ أن تنقذني من سُخطه و عقابه فقالت أنّها هي من كسر المزهريّة.. في تلك اللّيلة، انهال أبي على سُكَيْنة حتّى أدمى ظهرها.. انهال عليها ضربا على وجهها وكدما

حتّى استحالت روحا بلا جسد.. رأيتها .. أجل رأيتها حينما خرج أبي من الدّار لاعنا ساخطا.. رأيتها وثيابها ممزّقة وشعرها ممزّق وحذاؤها ممزّق.. ملقاة على بلاط الغرفة و عيناها لا تتحرّكان.. شفتاها جامدتان ويداها عاجزتان عن الحراك.. كلّ هذا لأنّ المزهريّة كُسِرت.. وأُقسم أنّني لو اعترفتُ بما اقترفتُ لربّت على كتفي ملاطفا أو لأنّبني ببعض العبارات.. وكانت المسكينة تظنّ أنّها أنقذتني من عقاب ولم تكن تدري أنّ والدي ما كان ينتظر معرفة الفاعل بل كان ينتظر هفوة مثل هذه حتّى يصبّ جامّ غضبه عليها.. لم أكن أدري وأنا في تلك السّنّ سرّ تصرّف أبي معي ومعها لكنّني أدركت فيما بعدُ أنّ أبي كان رجلا تقليديّا.. يكره الفتيات وعلمت فيما بعدُ أنّه هدّد أمّي بالطّلاق إن لم تنجب له ولدًا ذكرًا و كان لها أن أنجبتني بعد عشر سنوات قضتها تعيسة.. زعموا أنّ أبي قد تزوّج خلالها مرّتين ولم ينجب غير ثلاث فتيات رفض الاعتراف بهنّ وطلّق أمّهاتهنّ وعاد بعدها إلى أمّي ليكمل معها المشوار الّذي بدأه حتّى وُلدتُ أنا.. تزوّج خديجة وأنجب منها رقيّة وتزوّج فاطمة وأنجب منها زهرة وعائشة.. « ذاقت أمّي العذاب والذّلّ والهوان مع أبي الجبّار الّذي كان يعاملها كما الآن» هذا ما كانت سُكَيْنة ترويه لي عنهما فهي الّتي واكبت الأوضاع مع أمّي في حين لم أرها أنا إلاّ من خلال الصّور..

منذ تلك الحادثة أدركت أنّ سُكَيْنة فتاة طيّبة وأنّها كانت تحبّني كثيرًا لكنّها وللأسف كانت ضعيفة الشّخصيّة.. أذكر أنّها في تلك اللّيلة قامت وأخذت تمسح جروحها وتغسل وجهها وتغيّر ثيابها وتصلح حذاءها ثمّ ذهبت إلى المطبخ لتعدّ طعام العشاء. وعاد أبي فغسلت له رجليه و جلبت له الطّعام إلى غرفته ثمّ نامت باطمئنان وكأنّ شيئا لم يكن..

* * *

عندما بلغتُ السّادسة من عمري، أدخلني أبي كُتّاب صديقه المؤدّب بشير.. كان الكُتّاب قريبا من بيتنا ورغم ذلك كان أبي يُوصِلني كلّ صباح قبل ذهابه إلى دكّانه ويعود عند الغداء ليصطحبني إلى البيت.. لا أذكر أنّ المؤدّب صرخ في وجهي مرّة أو ضربني كما كان يفعل مع

أصدقائي الّذين لا يجيدون التّلاوة رغم أنّني لم أكن أحفظ البتّة وأذكر أنّه كان دائم الابتسام في وجهي ودائم الحرص على أن لا أغادر الكتّاب حتّى يأتي أبي لاصطحابي.. كلّ ذلك لأنّ والدي كان يوصيه بي خيرًا كلّ صباح..

أذكر مرّة حين أردت أن أتمرّد فغادرتُ الكتّاب خلسة وحينما تفطّن المؤدّب لغيابي اسودّت الدّنيا في وجهه وتَرَكَ الصّبيان وخَرَج ليبحث عنّي فوجدني في البطحاء ألعبُ مع بعض الفتية فحَمِدَ الله وعاد بي إلى الكتّاب دون أن يفتح فاه بكلمة واحدة.. لم يعاتبني.. لم يضربني.. ولم يقل لأبي شيئا في ذلك اليوم خوفا منه.. خوفا من أن يؤنّبه ويخرجني من كُتّابه ويخسر المؤدّب بشير بالتّالي صداقة والدي والأجر السّخيّ الّذي يدفعه له كلّ شهر مقابل رعايته لي..

كان أبي عمدة القرية، لم يكن يظلم أحدًا أبدًا لذلك كان محطّ إعجاب الجميع وكان الكلّ يحاول التّقرّب منه بشتّى الطّرق، وسرعان ما أدركت ذلك فأتيت ما حلا لي إتيانه وما يريد كلّ طفل أن يفعله في سنّي فتمرّدت على الكتّاب والمؤدّب أكثر من مرّة..

أذكر يوما حين تخاصمتُ مع صديقي جمل فتبادلنا الشّتائم واللّكمات.. اشتكاني آنذاك إلى المؤدّب فنال هو العقاب وظللت أنا أستمتع بمشاهدته و يداه تتفقّعان برحا كما لم يحصل معي البتّة..

هكذا قضيت السّنوات الأولى من طفولتي بين بطحاء الحيّ والوادي والكتّاب الّذي لم أقض فيه إلاّ أيّاما قليلة مستغلاّ خوف المؤدّب من والدي وحرصه على أن لا يغضبني..

* * *

أحسستُ وأنا في ذلك السّنّ أنّني في موضع قوّة.. أنّ الكلّ يهابُني ويخاف مواجهتي.. احتراما وتقديرا لوالدي.. إلاّ سُكَيْنة، هي الوحيدة الّتي كانت تفتح لي قلبها.. تحكي لي ما يدور بخلدها.. تُطلعني على أسرارها.. ذلك لأنّني وُلِدتُ نبيها.. أفهم كلّ ما يجول حولي رغم صغر سنّي.. ولأنّني وُلِدتُ طموحًا.. ولأنّ بقلبي عقدة من والدي.. لم أكن أريد أن أكون مثله متجبّرًا.. أذكر أن حدّثتني يوما عن ولادتها.. كلّ

الأحداث الّتي حفّت بيوم مولدها سردتها لي مثلما سردتها عليها جدّتي وبأكثر تفاصيل حاولتْ التقاطها ممّا رسخ في ذهنها وممّا عاشته:

« يوم دغدغت أمّي أولى أعراض الحمل كاد أبي يخرج من عقاله فرحا.. فرِح لأنّ حمْلها أسكت النّاس الّذين ظلّوا طوال سنة كاملة بعد زواجه من أمّي يحثّونه على الزّواج ثانية حتّى أنّه تخاصم مرّة مع سالم جارنا الّذي كان يفاخره بإنجابه ولدين وزواجه لم يمض عليه الحول ونصف الحول فتبادلا الشّتائم والسّباب واللّكمات ونصف زبائن المقهى يحاولون إصلاح ذات البين في حين غادر النّصف الآخر المكان.. كلّ هذا لأنّ العمّ سالم قال لأبي آنذاك: " ما رأيكَ أن تطلّق بيّة حتّى أتزوّجها أنا وأجرّب حظّي معها ربّما أنجبنا ولدًا ويتبيّن أنّك أنت العقيم وليس هي.." وتخاصم مرّة مع عمّي رحمه الله حتّى أنّه رفض أن يشيّع جنازته مع بقيّة الرّجال عند وفاته..كلّ هذا لأنّ عمّي قال له مرّة ساخرًا منه: " لِمَ لا تتزوّج اثنتين ثمّ تُبقي على من تُنجب لك قبل الأخرى؟"

حملت أمّي لأوّل مرّة.. و لأوّل مرّة كان أبي سعيدًا، يضحك و يقهقه ملئ شدقيه ولا يغضب ولا يشكّ.. انقلبت حياة أمّي رأسا على عقب.. صار أبي يحبّها.. أجل أبي الّذي ما أحبّ أحدًا في حياته صار الآن يحبّ! ومن؟ أمّي؟ تلك المرأة الّتي عانت الأمرّين قبل أن تحمل.. ظنّت المسكينة أنّه أحبّها أخيرًا لأنّه وجدها صبورة ولم تكن تعلم أنّه أحبّ من في بطنها.. انطلت عليها حيلة القدر.. ذلك لأنّه وعدها إن أنجبت له ولدًا بأن تعيش معه في رغد ورفاهيّة.. لم تكن تعلم أنّها تنتظر أنثى لا ذكرًا.. لم تكن تعلم أنّ القدر يخبّأ لها مأساة.. عاشت أمّي ما يقارب عن التّسعة أشهر ملكة ولا كلّ الملكات، وأبي عمدة القرية خادم بين يديها..طَلَبَتْ مرّة الموز و ما أدراك ما الموز! طلبت موزة واحدة فجلب لها عذقا كاملا.. جلبه لها من فرنسا بمساعدة صديق له هناك وهو الّذي لم يطلب مساعدةَ أحدٍ من قبل!.. مرّت الشّهور مرَّ السّحابِ وأتت ساعة الوضع.. في تلك السّاعة سيحدّد مصير أمّي فإمّا السّعادة أو الشّقاء وكان للقدر أن اختار لها البؤس والتّعاسة.. خرجت القابلة من الغرفة حاملة المولود الجديد في لفافة بيضاء.. فاستقبلها أبي بوجه غلب عليه التّفاؤل.. مدّ يده للقابلة قائلا وعيناه تخترقان القماش

الأبيض:"هات الصّبيّ يا سيّدتي!"فردّت عليه مطأطئة رأسها: " إنّها فتاة.. وجهها جميل.. تشبه أمّها كثيرًا.. أدامك الله لتعيش في عزّك."

كان كلامها يقع على دماغ العمدة كما تقع القنابل أو الصّاعقة.. أخذ رأسه يدور..لم يعد يحسّ بشيء إلاّ بنقر على جمجمته وقرع كقرع الطبول يتكاثف.. قال و هو يلفّ ويحوم حول نفسه:«كيف هذا؟ لقد وعدتني أن تنجب لي ولدا..أبعد كلّ هذا أكتشف أنّ انتظاري عقيم!..أحمق؟ يالي من ساذج!..كيف صدّقت أقوال هذه الوليّة؟..«سأنجب لك ولدا يا عمدة » إنّها تكذب.. لقد خدعتني.. أستغفر الله العظيم ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.. فتاة.. وجهها جميل.. تشبه أمّها..لعنة الله على أمّها.. حسبي الله ونعم الوكيل.. يالي من أبله!.. كلّ ما فعلته كان دون جدوى.. كلّ انتظاري ذهب سدى.. أين سأواري وجهي الآن من النّاس؟ ومن أصحابي في المقهى؟ يا إلهي كم كنت فخورا وأنا أعلن للكلّ خبر حمل بيّة وها أنا الآن في ورطة..يجب أن استعدّ الآن لتقبّل شماتة سالم وسخريّته.. أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم وأستغفر الله العظيم من كلّ ذنب عظيم.»

خرجت النّسوة من الغرفة مسلّمات على العمدة «الحمد لله على سلامة بيّة يا عمدة»«جعلها الله بركة عليك»«رزقك الله الصّبر» «أخلف الله عليك بولد » كان ينصت لتهاني النّسوة بأذن صمّاء ولا يجيب.. ويداه الممسكتان بالرّضيعة ترتعشان.. كاد يسقطها.. كادت تفلت من بين يديه لولا أنّه سارع بوضعها على الأريكة وخرج لا يلوي على شيء.. هام على وجهه.. لم يستطع أن يذهب إلى المقهى.. كان يتخيّل همسات أصدقائه وتغامزهم عليه.. سيصير الآن محطّ ألسن الجميع .. سيصير موضوع حديث كلّ عائلة.. لم يجد مكانا يضمّه بعيدا عن الأعين فعد إلى بيته.. كان قد فرغ آنذاك من المهنّئين.. لم تبق إلاّ حماته مع بيّة لترعاها ..هرول إلى الغرفة التي هيّأها للمولود الجديد.. ولجها وارتمى على أوّل كرسيّ اعترضه.. أخذ يرقب بعينين حزينتين الستائر الزرقاء المسدلة على النّوافذ ..أخذ يتلمس بيدين مرتعشتين المهد الهزّاز «سيبقى مهدك فارغا يا ولدي العزيز .. ستبقى غرفتك قفراء..صحراء قاحلة..أمّا تلك الوليّة فسأنتظر حتّى تخرج تلك العجوز

الشّمطاء من غرفتها لأذيقها الويلات السّبع..لن تبيت هنا اللّيلة،لترحل لتوّها مع أمّها..لا أريد رؤيتها ثانية بعد الّذي أتته».

كانت بيّة متفائلة أكثر من العمدة.. كانت تأمل أن تنجب ولدا يملأ البيت سعادة.. ويملأ عليها الدّنيا فرحا وسرورا..

كانت تمنّي النّفس برغد عيش ورفاهيّة وهاهي آمالها الآن تتبخّر وهاهي قصور أحلامها تنهار أمامها كما تنهار قصور الرّمل على الشّاطئ بمدّ البحر وجزره.. ما إن أنجبت بيّة الفتاة حتّى اسودّت الدّنيا في عينيها.. انقلب وعد العمدة إلى وعيد.. تخيّلت حالته عند سماع الخبر.. تخيّلته وقد جُنَّ جنونه و طار عقله.. تخيّلت ذلك وارتسم المشهد أمامها.. فأظلمت الدّنيا في وجهها وأجهشت ببكاء مسترسل لا ينقطع.. انهمرت دموعها حتّى تورّمت جفونها.. كانت خائفة.. أجل.. خائفة منه.. هل ستنقلب حياتها؟.. هل سيستمرّ في حبّها.. أم سيطلّقها؟ جالت كلّ هذه الأسئلة في خاطرها و دارت دوران الأرض في محورها.. أخذت تلهج في صوت منكسر.. «أيّ مصير ينتظرني؟ ماذا سيفعل بي العمدة يا الهي؟»وأخذت أمّها تطمئنها و تقول: «"وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ" صدق الله العظيم. لا تجزعي يا ابنتي، لست المرأة الأولى أو الأخيرة الّتي تنجب فتاة.. لِيَكُنْ إيمانك بالله قويّا.. لا تفعلي بنفسكِ هذا لا تنْسَيْ أنّك نُفَسَاءُ والغضب والتّعب يضرّان بصحّتكِ.. أزمة وتنفرج إن شاء الله وينسى زوجك كلّ شيء وتبدآن صفحة جديدة في انتظار ولد يملأ عليكما البيت بهجة.. نامي الآن ويفرجها القدير في الصّباح» خرجت الجدّة من الغرفة فوجدت نفسها وجها لوجه أمام صهرها الذي أخذ يرعد و يزبد و يقول صائحا:« أين هي اللّعينة؟.. الآن تُخفي وجهها.. الحقيرة!.. بعد أن خدعتني.. هل تعتقد بأنّها ستنجو بفعلتها هذه؟ ستنال عقابها.. أنا العمدة أُخْدَعُ؟ ومن يخدعني؟ امرأة!

يا للسّخرية! ستخرج من هنا مطلّقة وفي حضنها ابنتها.. لتربّيها بعيدا عنّي.. لا أريد أن أراها يعد اليوم..» كانت أمّ بيّة تهدّئ من روعه وتحاول إسكاته لئلاّ تسمعه زوجته :« لتكن عاقلا يا ولدي.. الفتاة ما هي إلاّ ابنتكَ أوّلا و أخيرا.. ربّما بعثها الله لكَ ليختبر صبري..

سيرزُقُكَ إن شاء بصبيّ يحمل اسمكَ بعدكَ.. إنّها مشيئة القدير.. بيّة لا دخل لها في هذا.» صرخ العمدة في وجه حماته متوعّدا موليا وجهه شطر باب الغرفة « كفاكِ هذْرا.. لا تضيّعي لي وقتي بتفاهات العجائز هذه.. قراري لا رجعة فيه.. اجمعا أمتعتكما وارحلا الآن ولا تضيّعا دقيقة واحدة..».

بعد شهرين من هذه الحادثة قيل أنّ العمدة أحسّ بأنّه ظلم بيّة وقال آخرون أنّها أتت تستجديه كي لا يطلّقها وقال آخرون أنّ هناك مِن أصدقائه المقرّبين مَن دفَعه إلى أن يعيدها إلى بيته وقال آخرون أنّه حلم بعزرائيل يتهدّده إن لم تتربّ البنت في بيت والدها..

* * *

أعادني أبي صحبة أمّي إلى هذا البيت، عادت أيّام أمّي ظلاما كما كانت. عندما بلغت سنّي الخامسة، بلغني أنّ لي أختا لكنّ أبي كان يرفض سماع تلك الشّائعات، كان يقول أنّ النّاس يتكلّمون كثيرا ويشوّهون سمعة غيرهم.. قال إنّ النّميمة عندهم هواية..

كانت تلك الشّائعات تقول إنّ أبي تزوّج مرّتين وأنجب لي ثلاث أخوات لكنّه كان ينكر وينكر وينكر.. المهمّ أنّني عشت مع أمّي حتّى صار عمري عقدا واحدا حتّى حملت بِكَ.. لم تكن لتصدّق نفسها آنذاك. رفضت أن تقول لأبي في بادئ الأمر خوفا منه لكنّها لم تُطِق صبرا.. أذكر أنّها قالت للعمدة يومها ونحن نتناول العشاء بعد تردّد:

« - أُريد أن أخبرك بنبأ ربّما أَفْرَحَكَ وربّما أَزْعَجَكَ.

- ماذا تريدين يا وليّة.. تكلّمي..

- أقول ولا تغضب منّي؟

- إن لم تتكلّمي فسأقلب هذه المائدة على رأسك.. هيّا.. انطقي ولا تثيري أعصابي..

- حسنا.. حسنا.. سأقول.. أظنّ أنّني حامل..

- ماذا تقولين؟

- أظنّ أنّني حامل بولد..

- هل تجرئين؟ تكذبين مرّة أخرى؟

- صدّقني إنّني لا أكذب..

- كيف لك أن تحملي بعد عقم دام عشر سنوات؟
- أنا لم أكن عقيمة يا سي العمدة.. لقد أنجبت سُكَيْنة قبل اليوم..
- غدا، سأجلب لكِ الخالة فتحيّة قابلة القرية حتّى تتأكّد من ذلك بنفسها.»

وفي الغد أكّدت له القابلة صدق ما قالته بيّة لكنّه لم يكن مقتنعا.. كان يشعر بالغبطة لسماع الخبر لكنّه كان في الآن ذاته يحسّ بالخوف لأن تكون فتاة مثل اللائى سبقنها.. كان يرجّح أن تكون فتاة لكنّه لم يفقد الأمل.. «ربّما كان ولدا وما الضير في أن ننتظر.. هي الّتي ستتعب.. لن أكون مثل المرّة الأولى.. لن تخدعني.. لن ألبّي لها أيّ طلب من طلباتها ولو زحفت على بطنها.. الغبيّة تظنّ أنّ الحيلة ستنطلي عليّ هذه المرّة أيضا.. لكن هيهات، سأستغلّ هذه الفرصة لأعاقبها».

بعد مغادرة القابلة دلج إلى الغرفة فقابلته زوجته بوجه مستبشر ذكّره بحملها الأوّل فقال لها:« لا تظنّي أنّك ستنعمين بتلك الأيّام الّتي نعِمْتِ بها في المرّة الأولى.. لقد أوصيْت القابلة قبل مغادرتها بأن تدفن هذا السّر هنا.. لن نُعلن خبر حملك لأحد.. تفاديا لشماتة البعض.. فإن أنْجبْتِ ولدا وهذا مستبعد جدّا فالأفراح ستعمّ القرية وإن أنْجبتِ بنتا فالويل كلّ الويل لكِ..» أدرَكَتْ بيّة آنذاك أنّها ستعيش خائفة طوال فترة حملها.. لكنّها رغم ذلك صمدت.. صمدتْ كثيرا حتّى أتت ساعة الوضع..

حكت لي جدّتي أنّ ساعة وضعكَ كانت صعبة جدّا.. كُنت آنذاك في بيت خالتي.. خُيِّل لي أنّني أسمع صراخ أمّي.. في تلك السّاعة أبصرَتْ عيناك النّور وأغمضت أمّي عَيْنَيْها إلى الأبد.. ماتت قبل أن تعرف أنّك ذكر.. ماتت قبل أن تعرف أنّها حقّقت أمنية العمدة.. ماتت قبل أن تعيش حياة الرَّغَد و الرّفاهيّة الموعودة.. قبل أن تشاهد الأفراح الّتي عمّت القرية إثر ولادتكَ..

* * *

خرجت القابلة من الغرفة و على وجهها مسحة من الحزن وبين يديها لفافة بيضاء.. طأطأ العمدة رأسه.. أيقنَ أنّ الحزن الّذي بان على وجهها ما هو إلاّ نتيجة إنجاب بيّة لفتاة أخرى. قال:

«- فتاة أخرى.. أ ليس كذلك؟

- بل ولد.. لكن..

- ما به؟ هل مات؟

- لا.. بيّة هي الّتي.. رحمها الله بذلت كلّ ما في وسعها لِتُنجبَ لكَ الولد الّذي رغِبْت فيه!

- الله أكبر.. إنّا لله و أنّا إليه راجعون..

- رزقكَ الله الصّبر والسّلوان.. وأبقاكَ لولدكَ..

- لا أراكِ الله بأسا.. هاتِ الولد إنّه آخر عزاء لي في هذه الدّنيا الغدّارة..

- وابنتك سُكينة..»

لم يُجِب.. تذكّر في ذلك الوقت أنّها لا تزال في بيت خالتها؟ كيف ستتقبّل نبأ موت أمّها؟

لم تكتمل فرحة العمدة.. ولادة وجنازة في وقت واحد.. تمّت مراسم الدّفن وسُكَيْنة في بيت خالتها..

وبرغم ولادتكَ الّتي أفرحته كثيرا وحقّقت له أمنية لطالما حلم بتحقيقها حتّى ظنّ أنّها أبعد من نجم السّماء إلاّ أنّه حزن كثيرا على أمّي.. رأيته مرّة جالسا في غرفته يبكي بدموع حارّة.. لم أر في حياتي العمدة يبكي أبدا.. لم يحزن على أحد في حياته أبدا.. حتّى عمّي عندما توفّي لم يذهب في جنازته.. أخوه أقرب النّاس إليه.. لماذا؟ لأنّهما تخاصما.. أبي رجل قاسٍ جدّا.. و على قسوته.. بكى عندما ماتت أمّي.. لا أعرف إن كانت دموعه دموع حزن لها أم دموع شفقة عليها لأنّها تعبت كثيرا حتّى حقّقت له حلمه ثم ماتت دون أن تتمتّع بشيء ممّا وعدها به..

ربّما وجد العمدة نفسه قد خدعها كما خدعته هي.. لقد وعدته في الأوّل بأن تنجب له ولدا فلم يشأ الله إلاّ أن يأخذها إلى جواره.. الآن فقط عرف شعورها.. عرف غدر الزّمان.. وجد العمدة نفسه مكان بيّة

فعاني ما عانته حتّى بكى.. و ربّما أحبّ ّها.. ربّما أدرك قيمتها بعد أن ماتت.. تذَكّرَ أنّها كانت تسعى لتلبية كلّ حاجياته.. وتعمل على توفير الرّاحة له.. حتّى طلبه الّذي كان مستحيلا.. إنجابه لذكر!.. حقّقته له ثم أسلمت روحها..

سمِعتُه عدّة مرّات يلهج باسمها عندما يكون نائما.. كان يقول:« بيّة.. بيّة.. لا تتركيني وحدي.. أرجوكِ..» كنت أهرع إليه فأسقيه كوبا من الماء ثمّ أغطّيه كطفل رضيع فيستسلم للنّوم بعد لأي.. مرّ أبي بهذه الفترة.. ظلّ طوال أربعين يوما بلياليها على هذه الحال.. لكن رغم كلّ هذا لم يتراجع عن الاحتفال بمولدكَ.. وكأنّ القسوة كانت متأصّلة في طبعه.. بعد مرور أيّام الحداد، أقام لك احتفالا حضره أعيان القرية.. كان احتفالا ولا كلّ الأعراس.. أيّام سبعة وليال مثلها.. سمعت الحاضرين يقولون:« إن كان هذا احتفالا بمناسبة مولد الابن فكيف سيكون احتفاله بالختان؟» وكُنتُ أسمعه يردّد بصوت خافت منكسر:« ليتكِ كنتِ حاضرة يا بيّة».

* * *

لم يرض العمدة بأن يتزوّج ثانية بعد أمّ صالح أو لنقل رابعة إن صحّت الشّائعات.. المهمّ أنّه رفض الزّواج بعد إنجابه لولده.. ربّما لأنّه لم يُرد أن يجلب زوجة أب لابنه تذيقه المرّ وربّما لأنّه أراد أن يكرّس بقيّة حياته لرعاية الابن الوحيد وربّما لأنّه لم يعُد يحتاج لامرأة ترعى شؤونه بعد أن كبُرت سُكَيْنة وصارت تهتمّ بكلّ شيء.. لسبب ما من هذه الأسباب رفض العمدة الزّواج ولعلّ السّبب الرّئيسي كان حبّه لبيّة.. لن تستطيع كلّ نساء القرية تعويضها..

عشنا ثلاثتنا في هذا البيت.. قاسيْتُ أنا ما قاسته أمّي من قبلي.. عانَيْتُ من صرامة والدي كثيرا و من جبروته.. لم يكن لي خيار آخر إلاّ أن أتحمّل.. ما هو إلاّ أبي.. أمّا أنتَ فقد دلّلكَ أبي كثيرا وهو إلى الآن يُدلّلكَ.. كان يشتري لكَ كلّ ما يحرمني أنا منه حتّى أتى يوم خِتانكَ.. كان عمركَ آنذاك سنوات أربعة..

في ذلك اليوم فقط، تبيّن كم كان العمدة يحبّ ولده.. كان وجهه مصفرّا.. كان يراقب بكاء ابنه و بودّه لو تدخّل لنجدته من يد الحلاّق.. كان يخيّل إليه وكأنّ صالحا يموت.. كان خائفا عليه كثيرا.. ولولا مركزه في القرية لما توانى عن إنقاذه من براثن الرّجال الممسكين بتلابيبه..في ذلك اليوم فقط، شاهد النّاس العمدة بشكل لم يألفوه.. اعتادوا رؤيته جبّارا.. قويّا.. قاسيا.. لكنّ الرّجل الّذي أمامهم في ذلك اليوم بدا لهم أرنبا ضعيفا بالكاد يقدر على مسك دموعه ومنعها من النّزول..»

* * *

كان يخاف عليّ كثيرا.. أجل.. يخاف عليّ أكثر من خوفه على نفسه ويحرص عليّ وكأنّني عيناه.. بقدر ما كان يقسو على سكينة.. لقد حرمها من التعليم فشبّت لا تعرف حتّى كتابة اسمها.. لم تدرس الدّين.. لم تقرأ القرآن.. إنّها لا تعرف حتّى تاريخ مولدها.. أذكر أنّها قالت لي مرّة:

« لقد حفظ أبي تاريخ مولدك الموافق ليوم وفاة أمّي باليوم والشّهر والسّنة..سمعته مرّة يقول للعمّ سالم صديقه الحميم:" لقد وُلِد صالح في اليوم الّذي تمّ فيه القبض على علي البلهوان.. يا لغرائب الصّدف ! أ تذكر؟ يوم لاحظتَ غياب أخيكَ المنجي فخفتَ أن يكون من جملة من ذهبوا لنصرة البلهوان؟ قد صدق حدسك آنذاك.." كان سي المنجي الأخ الأصغر للعمّ سالم لكنّه كان واعيا بما يحدث في البلاد.. قيل أنّه كان عضوا في الحزب الحرّ الدّستوري.. المهمّ أنّ أبي كان مهتمّا يكلّ شيء يخصّك أمّا أنا فحتّى يوم مولدي فهو لا يهتمّ بمعرفة أيّ شيء عنه.. كان دائما يقول عن مولدي أنّه نذير شؤم إذ أنّ العالم أُصيب إثر ولادتي بأزمة حادّة أظنّ أنّها أزمة ماليّة.. على كلّ من المؤكّد أنّه مُسجَّل في دفتر الولادات..».

و عندما كانت أمّي على قيد الحياة لم تهتمّ بتلقينها عدّة أمور لانشغالها بهموم أبي و تلبية طلباته و تلبية طلبات الزّبونات اللائي يأتين لشراء الملابس الّتي تخيطها. ومن حسن الحظّ أنّ أختي تعلّمت الخياطة لذلك فكلّ الملابس الّتي كنت أرتديها كانت من صنع يديها..

حرم أبي سُكينة حتّى من الدّخول و الخروج إلاّ حين تُطلب للمساعدة في إقامة عرس أو مأتم ولا يُسمح لها بالخروج من البيت إلاّ وهي مرتدية برقعا أسودا يُخفي عينيها وملامح وجهها.. أذكر أنّه قال لها مرّة: « المرأة الصّالحة لا تخرج من بيتها إلاّ مرّتين: مرّة عند زفافها لتتوجّه إلى بيت زوجها ومرّة لتغادر بيت زوجها إلي القبر.» أي أنّ قدر المرأة الصّالحة أن تعيش في الظّلام طول حياتها وحتّى بعد مماتها. في حين وفّر لي والدي كلّ ظروف الدّراسة، كان يشتري لي الكتب والكراريس بما يفيض عن حاجتي في كلّ سنة دراسيّة وعندما بلغت العاشرة من عمري أدرك أنّي مغرم بالمطالعة فقد كنت ألتهم بعيني كلّ ما تقع عليه يدي من كتب ومجلاّت مصوّرة وخرائط وخاصّة الخرائط، أمسك الواحدة منها وأظلّ أبحث عن موقع بلادنا من العالم ثمّ عن موقع المدينة ثمّ عن موقع القرية وأظلّ بالعدسة المكبّرة أبحث عن الوادي الّذي كنت أذهب إليه خلسة مع الصّبيان فلا أجده.. وكأنّني كنت أبحث عن وجودي في العالم فلا أجده.. أبحث عن ذاتي فلا أجدها.. في ذلك الوادي عرفت أجمل مراحل حياتي.. الطّفولة.. لعبت فيه مع أقراني فكم من مرّة تبلّلتُ بمياهه وعدتُ إلى سكينة الّتي كانت تبتسم وتبدّل لي ثيابي قبل عودة أبي.. ذلك لأنّني كنت أذهب إلى الوادي في وقت الكتّاب.. في هذا الوادي عرفت طفولتي.. بعيدا عن صراخ أبي وبكاء أختي وتملّق المؤدّب.. عرفتُ معنى البراءة والصّدق في وجوه أترابي من الصّغار والصّفاء و الشّفافية في مياه واديّ الحبيب.

في عقدي الأوّل فقط أدركتُ قيمة التّاريخ. التّاريخ الّذي كنتُ مولعا به منذ نعومة أظفاري، كنتُ عند عودتي من الكتّاب مباشرة أشغّل المذياع وألتهم بأذني كلّ ما يداعب سمعي من أخبار الحرب الّتي أذكر أنّني كنتُ في السابعة من عمري عند انتهائها.. كنتُ صغير السّنّ آنذاك لكنّني استعنت بأبي قليلا على فهم بعض أطوارها.. كنت عبقريّا بشهادة كلّ الّذين أحاطوا بي.. سمعتُ مرّة جارنا مسعودا يحادث أبي قائلا:« ابنك حقّا عبقريّ.. لقد فهم أطوار الحرب وهو بعد لم يبلغ العشر سنوات وأنا كهل في الخمسين من عمري وعشتُ الحرب ولازلت

جاهلا ببعض الأحداث الّتي حفظها ابنك عن ظهر قلب. أنصحك بأن تحرص على تعليمه حتّى ينير وجهك مستقبلا».

زادني كلام جارنا إصرارا على المعرفة وطلبا للعلم فأقصاني أبي عن الكتّاب وسجّلني في مدرسة ابتدائيّة تبعد كثيرا عن قريتنا لكنّني وشوقا منّي وتطلّعا للمعرفة تغلّبتُ على الصّعاب وواظبت على الدّراسة حتّى تعلّمت القراءة و الكتابة وكان عمري آنذاك لم يتجاوز التّسع سنوات.. الكتابة.. ليتني ما تعلّمتُ ولا درستُ ولا عرفتُ القراءة ولا الكتابة.. الكتابة.. سبب شقائي وشقاء أختي معي.. أختي الّتي تراقبني كيف أقرأُ وأحفظُ وأكتبُ فتبتسم وتسقط من عينها دمعة حارّة.. كنتُ أحسّ أنّها كانت مغلوبة على أمرها.. مقهورة.. مسلوبة الإرادة.. ليس بيدها حول ولا قوّة.. كانت تحبّ الدّراسة مثلي.. تحبّ أن تتعلّم لكنّ القدر عمل مع أبي على إضاعة أمانيها وطمس شمس أحلامها ودفنها في أقبية الجهل بين جدران البيت.. حتّى أتى البطل الّذي أنقذها وأخذ بيدها لينتشلها من مستنقع الجهل إلى بحر المعرفة.. كان هذا البطل أنا.. أشفقتُ عليها فعملتُ على القيام بدور المدرّس معها حتّى أرشدتها إلى طريقة كتابة اسمها.. أذكر أنّي كنتُ أبسّطُ لها الحروف فأمثّلها لها بالغلال أو المأكولات وأقول لها:

هذا حرف السّين..سين.. ردّدي معي.. سين سمكة
وهذا حرف الكاف.. كاف.. ردّدي معي.. كاف كرة
وهذا حرف الياء.. ياء.. ردّدي معي.. ياء يمامة
وهذا حرف النّون.. نون.. ردّدي معي.. نون نفّاخة
وأخيرا حرف التّاء.. تاء.. ردّدي معي.. تفاّحة

كانت تكرّر هذه الحروف وتعيدها مرارا حتّى حفظتها عن ظهر قلب وصارت تعرف كيف تكتب بعض الكلمات السّهلة الّتي درستُها أنا قبلها.. كنتُ أحسّ أنّ أختي أصبحت تعرف لحياتها طعما حلوا بعد الحنظل الّذي تجرّعته طوال عَقْدَيْن من الزّمن.

كان عمري آنذاك عشر سنوات فقط ورغم ذلك فقد كان أبي يعوّل عليّ في كثير من الأمور.. كان لا يثق إلا بي، بل ويعتبرني ساعده الأيمن.. لكنّني لم أكن أمينا معه.. لماذا؟ لأنّني لم أكن أحبّ تصرّفاته

كثيرا.. لم أكن أحتمل رؤية أختي تعاني الأمرّين وتذوق ألوانا وألوانا من القسوة كلّ يوم.. من السّوط إلى العصا إلى الشّتم والتّقذيع.. كثيرا ما كان ينعتها بابنة الشّؤم.. كانت تبكي وتبتلع سبابه الواحدة تلو الأخرى وتخزنها في قلبها ومصير هذا القلب أن ينفجر يوما ما.. لم أكن أحبّ تصرّفات أبي.. لم أكن أحتمل رؤية أختي والدّموع تفور من عينيها طوفانا وتسيل على خدّيها أنهارا وجداول تسقي أرضيّة غرفتها النّديّة، تلك الغرفة الضّيّقة، مقشّرة الجدران، تلك الغرفة الأشبه بالقبو أو الدهليز، تلك الغرفة الّتي ذهب أكثر طلائها وظهر من تحته الإسمنت رماديّا مرعبا يصوّر لرائيه في أكثر الأحيان أشكالا لأشباح مخيفة.. كثيرا ما كنت أدخل الغرفة لأنادي أختي مثلا فتتهيّأ لي تلك الصّور أرواحا تركض خلفي وتعدو حتّى تكاد تلحق بي فأخرج من باب الغرفة مسرعا، مهرولا، لا أجرأ على الالتفات ورائي وخاصة في اللّيل عندما كان ظلّ نور القنديل ينعكس على الحائط فتتّحد الظّلال مع الظّلام و أشكال الأشباح الرّمادية و هذا كاف لدفعي إلى خارج الغرفة مذعورا، والرّعب يلتهم قلبي.. كنتُ أعجبُ! أجل أعجبُ.. كيف لهذه الفتاة الّتي ما تعدّت العشرين من عمرها أن تسكن مع تلك الأرواح والأشباح.. أن تنام.. وتسمر وتخيط في ذلك المكان الموحش.. كانت بالفعل شجاعة أو بالأحرى قد علّمتها قسوة الحياة الشّجاعة حتّى أنّها لم تعد تأبه لشيء.. كلّ ما يحيط بها متشابه كتشابه أوراق الشّجر في الخريف أو كتشابه النّجوم في اللّيل الدّامس. الظّلام والنّور عندها سيّان والبرد والحرّ عندها سيّان والحياة والموت كذاك سيّان!!

كانت حياتها شبه انتظار عقيم لشيء ما لم تكن تدري هي ذاتها ماهيّته.. لم تكن تعرف نهاية المطاف.. تسير وتسير وكأنّها تمشي في الصّحراء متطلّعة إلى الأفق أو تسبح في اليمّ وتريد لمس الشّمس.. كان القدر يسيّرها.. يقودها بقوّة ويشدّها بقسوة فتتبعه لكنّها لم تتعثّر بل سقطت.. سقطت دون أن تتعثّر.. سقطت عندما وصلت!!..

حين بدأتُ أدرّسها صار لزوما عليّ أن أدخل تلك الغرفة..وفي اللّيل!! وقت صلاة العشاء حين يذهب أبي إلى المسجد.. وعلى ضوء القنديل الموضوع على آلة الخياطة ظهرت لي تلك الأشباح المريعة من

جديد.. كنتُ في اللّيالي الأولى خائفا كثيرا.. لكنّ التّحدّي كان أقوى من أن أترك سُكَيْنة دون تعليم.. فصارعت الأشباح حتّى تغلّبت عليها.. تغلّبت على الخوف الّذي كان بقلبي.. تغلّبت على الخوف من أبي!! صارت الأشباح أنيستنا، صرت أحسّ أنّ الأرواح تلاميذ تدرس معنا الحروف والكلمات حتّى صرت أتحدّث في بعض الأحيان معها أو أعاتبها فتضحك أختي ملأ شدقيها.. كان يسيطر عليّ شعور غريب عندما أسمع ضحكة أختي.. لم أكن أدري أكانت تلك الضّحكة تنبعث من قلبها أم أنّها كانت تلك الضّحكة الّتي تستبطن البكاء.. كان ذلك الشّعور مزيجا من الفرحة والحيرة..الفرحة بأنّي نجحتُ في إعادة البسمة إلى ثغرها والحيرة من ماهيّة تلك البسمة.. المهمّ أنّني كنتُ أشعرُ بأنّني أزحتُ القليل من الحزن من على قلبها المهموم..

لم تكن تصرّفات أبي تعجبني.. لم أكن أحتمل رؤية سُكينة وهي تنظر لي بعين تملؤها الحسرة والألم عندما كنتُ أنجز واجباتي المدرسيّة في البيت وتأتي هي حاملة بين يديها الطّبق وعليه كوب الشّاي و تضعه على الطّاولة قائلة بنبرة منكسرة، حزينة:« كان الله في عونك». كنتُ أحسّ أنّ كلّ كلمة كنتُ أخطّها على دفتري كانت بمثابة الدّمعة الّتي تنزل من مقلتيها لتتدحرج على وجهها وتستقرّ في فنجان الشّاي المنتصب بهدوء وطمأنينة على المكتب بجانب يدي.. كانت تنظر إلى كلّ حرف أكتبه بتعجّب وفضول وأسف.. تظلّ تتأمّله وتحدّق فيه وكأنّها تحاول فكّ رموز لغز محيّر ثمّ تنصرّف بكلّ هدوء لتتركني أفكّر في ما تخفيه من عذاب لا أظنّ أنّه سينتهي!!

ما كان لطفل في مثل سنّي ونباهتي أن يحتمل كلّ ما يجري ويظَلَّ صامتا خاصّة وأنّي كنتُ أملكُ سلاحا قويّا.. ذلك السّلاح هو ثقة أبي الّتي اكتسبتها منذ اليوم الأوّل من ولادتي..

هزّني نداء الواجب وصوت الضّمير وصدى الوجدان إلى محاولة إنقاذ أختي من عذابها فعلّتها القراءة و الكتابة.. كانت ذكيّة.. تحبّ التّعلم وتسعى جاهدا للمعرفة والعلم.. كان أبي يغادر المنزل كلّ يوم عند صلاة العصر ليعرّج على المسجد ثمّ يتّجه إلى دكّانه ولا يعود إلاّ بعد صلاة المغرب ليتعشّى ويستريح ثم يعود إلى المسجد لتأدية صلاة

العشاء ومن ثمّ يكمّل الثّلث الأوّل من اللّيل في المقهى مع أصدقاءه.. لذلك كان الجوّ يخلو لنا حينا من الدّهر.. ساعة صفاء ندرس فيها ولا نملّ ولا نحسّ بمرور الوقت إلاّ حين نسمع دوران المفتاح في قفل الباب وسعال أبي وحشرجته في البهو.. فأهرول أنا مغادرا غرفة سُكيْنة، متّجها صوب غرفتي..

كان تعليم أختي بداية تمرّد وإعلانا للثّورة على أبي، لم أكن أريده أن يعلم بذلك، كنتُ أريد أن أتجنّب النّقاش معه.. النّقاش المسدود الّذي لن يفضي إلاّ لنتيجة واحدة.. أختي الّتي ستنال عقابا ما بعده عقاب وأنا الّذي سأفقد ثقة أبي فيّ كلّيّا.. ونحن لسنا بحاجة إلى مزيد تعكير صفو حياتنا.. لذلك آثرتُ أن يبقى ذلك سرّا..

علّمتُ سُكيْنة القراءة ثمّ علّمتُها الكتابة ثمّ علّمتُها كيف تتمرّد على أبي وتعيش حياتها ككلّ الفتيات.. أنا الّذي جعلتُها تتمرّد.. أنا الّذي دفعتُها إلى التّمرّد.. أنا الّذي دفعتُها إلى نهاية المطاف.. إلى الأفق.. إلى لمس الشّمس.. أنا الّذي أوصلتُها إلى الحافّة وأسقطتُها في الهاوية..

«- أبي ستذهب سُكيْنة إلى السّوق لشراء الصّوف الّذي يلزمها في الخياطة..

- ماذا تقول؟ و لِمَ تذهب سُكيْنة؟ هل ماتت الخالة خدّوجة؟

- لا يا أبي أبعَدَ الله عنها الشّرّ.. لِمَ تقول هذا وأنت تعلم أنّ صوت الخالة خدّوجة مازال يُسمع في الحومة؟!

- إذن ما الّذي حصل في الدّنيا حتّى تقرّر تلك المجنونة مغادرة البيت؟

- لم يحصل شيء يا أبي.. ولكنّ السّنين قد أخذت من الخالة خدّوجة مليّا.. لم تعد قادرة على التّمييز بين النّوعيّة الجيّدة والرّديئة من الصّوف إضافة إلى أنّ الألوان صارت تختلط عليها حتّى أنّها صارت تجلب لأختي الورديّ عوضا عن البرتقالي والأصفر عوضا عن الأخضر الفاتح كما أنّ السّوق بعيد وهي مريضة برجليها ولا تقدر على الذّهاب إلى هناك كلّ أسبوع.. أرجوك يا أبتي.. إن كنتُ أَعَزَّ عليكَ أُتركها تذهب..» .

هكذا كنتُ أستطيع أن أؤثّر في والدي.. كنتُ أُقنعه بسهولة وأعرف أنّه لا يستطيع أن يرفض لي طلبا ورغم ذلك قال لي يومئذ:

«- حسنا لكن بشرط.. اذهب أنتَ معها ولا تتركها تغب عن نظرك لحظة واحدة وإلاّ..

- لا تخش شيئا يا أبي.. اطمئن ما دامت معي..» .

كنتُ ألفظ هذه الكلمات وقلبي يكاد يقفز من صدري من شدّة الفرح.. خرجتُ راكضا، مسرعا لأُبشّر سُكيْنة بالنّبأ الجديد..

كانت تلك بداية النّهاية.. نهاية المطاف.

عندما ذهبنا أوّل مرّة إلى السّوق، كانت سعيدة جدّا.. رأيتُ في عينيها بريق الأمل يلتمع.. الأمل.. التّفاؤل بأنّ الغد سيكون مشرقا ويا ليته كان مشرقا.. أحسستُ أنّها في قمّة البهجة والنّشوة، لأوّل مرّة منذ ولادتها تعرف سُكيْنة معنى السّوق ورغم أنّ وجهها كان مغطّى بالنّقاب ما عدى العينين إلاّ أنّها كانت راضية وقانعة.. كان بودّي لم طلبتُ منها نزع النّقاب لكنّني تراجعتُ وألجمتُ لساني..« كفاك تمرّدا يا صالح.. كفاكَ ما فعلتَه بها.» كان هذا الصّوت يرنّ في أذني وينذرني من مغبّة الاستمرار في هذه الثّورة.. لم تعد الثّورة انتقاما من أبي فقط بل صارت تعبيرا عن موقف.. وخروجا عن عادات مجتمع بأسره بتقاليده وأعرافه..

لأوّل مرّة تدخل سكينة دكّان بيع الصّوف وتعرف مقرّ بيع الخيوط الّتي لطالما حاكتها وخاطتها وصنعت منها الملابس من معاطف إلى قمصان وسترات وسراويل وبرانس.. لم يكن الخوض في عالم السّوق أو حتّى القرية بأكملها طموحي الّذي أحلم بتحقيقه بل كنتُ أطمح لولوج عوالم أخرى أوسع وأوسع لكنَّ دخول عالم السّوق كان حدّ طموح سُكيْنة.. كان السّوق الضّيّق في رحابة الفردوس بالنّسبة لها.. لم تكن تحلم بتخطّي عتبة باب الدّار و هاهي الآن تصل إلى السّوق وما أدراك ما السّوق!!

دَأَبنا على عادة الذّهاب إلى السّوق كلّ أسبوع حتّى ما عاد أبي يكلّمنا ولا يسألنا إلى أين ذهبنا؟ أو من أين أتينا؟ بل اعتاد رؤيتنا نغادر البيت وكأنّه كان يقول في نفسه:« مادام صالح معها فلا خوف عليها».

لكن تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن! لم يكن اعتقاد أبي هذه المرّة في محلّه بل على العكس تماما.. كان عليه أن يقول:« مادام معها ذلك الشّيطان فالخوف كلّ الخوف منه عليها.» أجل أنا شيطان.. أنا وسواس.. كنتُ كثير الظّنّ في أذن سُكَيْنة وأقول لها:« هيّا انزعي النّقاب.. لِمَ لا نذهب اليوم إلى السّوق؟ أحمد يسأل عنك.. لِمَ لا تذهبين إليه؟» لم تكن تبالي بكلامي أبدا.. كانت غير مقتنعة بما أقول لها.. كانت خائفة من أبي ومن كلام النّاس.. كلام النّاس.. كانت عاقلة ورزينة ورغم أنّها لم تدخل المدارس، كانت تعرف ما يجب عليها فعله.. إلاّ شيء واحد!! في حين كنتُ أنا رغم تعلّمي وفطنتي متهوّرا، متسرّعا، مجنونا!!

مرّ الأسبوعان الأوّلان ثمّ صرنا نذهب إلى السّوق كلّ يومين.. هاهو الأسبوع الأوّل يمرّ.. يتبعه الثّاني ثمّ الثّالث وهاهو هلال آخر الشّهر يظهر ونحن على هذه العادة.. أنا وسواس.. وهي تنصت حتّى اقْتَنَعَتْ بكلامي وحتّى أتى ذلك اليوم المشؤوم.. يوم ذاقت أختي العذاب الّذي ما ذاقت مثله في حياتها يوما.. شاهدها أحد أعوان أبي وهي في السّوق تحادث أحمدا سافرة الوجه.. يا للعيب.. يا لوصمة العار.. يا للبصمة السّوداء الّتي طُبعت في تاريخ القرية.. ابنة العمدة تحادث شابّا في السّوق؟ بدون نقاب؟ الله أعلم ماذا وراء الحكاية من بلاوي! كثُرت الإشاعات.. وانتشر القيل والقال.. وظلّت حكاية عائلتنا حديث كلّ الألسن..

في تلك اللّيلة.. كنّا ندرس أنا وهي في غرفتها كالعادة.. ففوجئنا بباب الدّار يفتح وبحركات في الفناء.. خرجنا أمام الغرفة نستجلي هويّة القادم:

«- من سيأتي في هذا الوقت؟

- لا أحد غير أبي يملك المفتاح يا سُكَيْنة!

- لكنّه موعد صلاة المغرب.. ليس من عادته أن يأتي في هذا الوقت.. لا بدّ أنّ هناك شيئا ما جدّ في الدّنيا حتّى يغيّر أبي مواعيد دخوله وخروجه من البيت..»

صُفع الباب صفعة عنيفة.. ارتمت أختي ممسكة بي وقلبها لا يكفّ عن الدّقّ.. كانت تحسّ أنّ هناك شيئا ما سيحدث في تلك اللّحظة.. كان حدسها يقول لها أنّ أذى سيلحق بها..

«- أين هي الكلبة ابنة الكلب؟ أين هي؟

- عمّن تبحث يا والدي؟

- ابتعد من أمامي وإلاّ هشّمتُ رأسكَ.. ظننتُ أنّي خلّفتُ رجلا وها أنا أجد نفسي قد خلّفتُ حمارا لا يفهم.. أين هي اللّعينة؟ ابنة الشّؤم!

- سُكيْنة في غرفتها يا أبتي أرجوك لا تفعل لها شيئا..

- وهل الجرم الّذي اقترفته بسيط؟

- ماذا فعلت؟ قُلْ لي.. ماذا فعلت؟

- تذهب إلى السّوق.. لتشتري الصّوف أم لتبيع نفسها؟ قُلْ لي بالله عليكَ!.. وأنتَ ماذا ذهبتَ معها؟ صورة أم تمثال؟ كان عليك أن تجلس هنا كالنّسوة وتدعها تذهب لوحدها مادام وجودكَ كعدمه.. الحقّ ليس عليكما.. الحقّ على من لم يُحسن تربيتكما.. أُغربْ عن وجهي! ستعرف البلهاء عاقبة صنيعها.. سأقتلها وأشرب من دمها..»

لأوّل مرّة أرى أبي في تلك الحالة.. لم يعتد الصّراخ في وجهي أبدا.. في ذلك اليوم فَعَل.. لم يعتد أن يدفعني ويسقطني أرضا.. في ذلك اليوم فَعَل.. لم يعتد أن يجرحني بكلام أو يشتمني.. في ذلك اليوم فَعَل.. كان الشّرر يتطاير من عينيه.. يصرخ ويعربد ويزمجر ويضرب.. أجل ضرب أختي ضربا مبرّحا ذكّرني بحادثة المزهريّة عندما كان عمري خمس سنوات.. حينما ظنّت المسكينة أنّها أنقذتني من عقاب.. فنالت العقاب مكاني!! و هذه المرّة كذلك لم أقدر أن أنقذها من العقاب.. لم أستطع أن أذوق طعم العذاب مكانها.. لكنّني ذقته في النّهاية!!جلستُ أرقبُها و وجهها يستقبل اللّطم حتّى انهمر الدّم من أنفها وانهمر الدّمع من عينها كوّنا خليطا لخّص كلّ كلام يمكن أن أصف به حالتها المُزرية.. كلّ سنين العذاب الّتي عاشتها مع هذا الجبّار المتغطرس.. منذ يوم ولادتها حتّى.. !! رأيتُها ووجهها معفّر بتراب بلاط الغرفة

مسودّ بالفضيحة الّتي صارت محطّ ألسن الجميع..« ما الّذي فعلته يا إلهي.. هي لم تُخلّ بالأخلاق.. لم تقترف جريمة.. أ لأنها أحبّت يصير فيها كلّ ما صار؟ هل الحبّ حرام؟» كنتُ أواسي نفسي بهذه الكلمات حتّى أطرد عذاب الضّمير.. هل صحيح أنّني السّبب في ما جرى لها؟

لم أحاول أن ألوم نفسي أو أعاتبها على ما اقترفتُ في حقّ أختي المسكينة بل هرعت آنئذ إليها بعد أن خرج أبي من الغرفة والنّار تلتهم عينيه والبصاق يتناثر من فمه الذّي يلعن ويسبّ اليوم الذّي وُلِدتْ فيه هذه الفتاة..

هرعتُ إليها ووضعتُ كفّي على وجنتها الّتي بدت لي بيضاء على اسودادها من اللّطم والضّرب.. بدت لي حقّا صافية.. نقيّة.. شفّافة.. ينبعث منها نور المضحّي الّذي أراد إبلاغ رسالته وقدّم نفسه فداء لها.. هكذا بدت لي أختي بشعرها المغبَّر ووجهها المعفَّر وجسدها المُدمَّر.. رأيتُ في عينيها معاناة وكأنّ ما بنته تهدّم في لحظة واحدة.. خرابا نزل بكلكله على روحها وبدنها.. كانت تسعى إلى هدف معيَّن لكنَّ طموحها تبخّر.. انقطع خيط أحلامها الرّفيعُ كخيوط العنكبوت.. أنا الّذي قطعته.. من أقحم أحمد في حياتها لولا دفعي لها للخروج من البيت.. للذّهاب إلى السّوق.. لكنّ هذا ما كان يجب أن يحصل منذ البداية.. هذا هو الحدث الّذي يجب أن يقلب حياة أختي.. أن يزرع بذرة الحقد في قلبها.. بذرة الحقد الّتي ستولّد شجرة الثّورة.. الثّورة على واقعها الّذي تعيشه بين حيطان أربعة مع هذا العجوز الذّي ما كفّ يوما عن اضطهادها.. حتّى تذهب إلى القبر.. ما الّذي رأته المسكينة في حياتها غير أكوام الغسيل والأواني في المطبخ الّتي تنتظر التّنظيف وبلاط الدّار الذّي ينتظر المسح كلّ يوم والغبار الذّي يعلو كلّ ركن من أركان الغرف في انتظار أوبار مكنستها.. الكوّة الّتي تستطيع منها أن تنظر إلى الغد.. أين هو الشّباك الّذي ستطلع منه على العالم.. متى سيُفتح؟ متى؟

مرّت تلك الحادثة الأليمة.. تلك الحادثة الّتي قلبت حياة أختي رأسا على عقب.. الحادثة الّتي قرّبتها من النّهاية.. مرّت الحادثة ومرّت بعدها الأيّام بطيئة.. أبي قابع في البيت ليلا نهارا.. ترك عمله ليشتغل حارسا على أختي.. ليمنعها من الخروج وحتّى من الظّهور من شرفة

المطبخ.. صار لا يكلّمني إلاّ لِماما ولا يطيق النّظر في وجه أختي البتّة.. أمّا هي فقد ظلّت طوال أسبوعين لا تكلّم أحدا.. لا تنبس ببنت شفة.. حتّى ظننتُ أنّ خرسا ما أصابها.. صرتُ أصول وأجول في البيت ولا أجد أحدا يؤنسُ وحدتي كما كانت هي تفعل.. لم أجدْ شيئا يملأ الفراغ الّذي تركه صمتُ هذه الفتاة..

بعد مرور أسبوعين عاد كلّ شيء على ما كان عليه.. عاد أبي إلى عمله.. عادت الألسن إلى الحلوق.. إلاّ أختي الّتي لم تعد على طبيعتها معي.. لم تكلّمني.. ولم تثأر حتّى لنفسها.. لم تنتقم لنفسها منّي.. حتّى أتى ذلك اليوم..

«- اتركني وشأني أرجوك.. ابتعد عنّي..

- ما بك يا سُكينة.. أنا ما فعلتُ لكِ شيئا حتّى تعامليني بهذه الطّريقة..

- ما فعلتَ لي شيئا؟.. كلّ ما حدث وما فعلتَ شيئا؟ ماذا تسمّي ما وقع لي؟ قل لي ماذا تسمّه؟..

- أسمّيه حقّكِ الّذي دافعتِ عنه..

- حقّي؟ إنّك تهذي.. حقّا إنّكَ تهذي.. عن أيّ حقّ تتكلّم؟ منذ متى كان للفتيات الحقّ في الخروج أمام الجميع سافرات؟

- منذ الآن.. أنتِ هي الفتاة الأولى الّتي كسرتِ القاعدة.. أنتِ هي الأولى الّتي ستزرع في قلب كلّ انسانة هذا السّؤال.. لِمَ كُتِب على الفتاة أن تعيش في الظّلام حتّى يوم القيامة؟

- كفاكَ هُراء أرجوك.. ستحملني معكَ إلى الجحيم بهذه الأفكار الّتي تغزو رأسكَ.. قلْ لي بالله عليكَ من أين تأتي بها أيّها الشّيطان؟»

أجل أنا شيطان.. أنا من حملكِ فعلا إلى الجحيم.. كان حدسُكِ صادقا هذه المرّة أيضا يا أختاه.. جرفَني سيل الطّموح فجرفتُكِ معي.. الطّموح أن أراك يوما سيّدة محترمة بدون هذا النّقاب الأسود.. متعلّمة.. مثقّفة.. لكنْ هيهات..

ورغم كلّ ما قالته لي إلاّ أنّني استطعتُ أن أقنعها في نهاية الأمر.. أصبحتُ رسولا بينهما.. رسولا بينها وأحمد.. أردتُها أن تعرف معنى

الحبّ.. لا تستغربوا إن قلتُ لكم أنّني كنتُ أبلغ حتّى ذلك الوقت العاشرة فقط من عمري ورغم صغر سنّي كنتُ أطّلع على كلّ شيء.. كلّ شيء.. حتّى أنّني حلمتُ بتحقيق شيء ما في الإنسانيّة.. أن أغيّر المجتمع.. أن أغيّر وضعيّة المرأة.. ويا ليتني ما حلمت!! كان الثّمن غاليا.. كان الثّمن أختي!! كانت الضّحيةَ مع أنّها لم تختر هذا المصير بعقلها.. بل اختارته بقلبها.. القلب الّذي لا يؤدّي بصاحبه إلاّ إلى الهلاك.. إلى الهاوية.. هي في الحقيقة لم تختر أن تكون الضّحيّة لكنّها دُفِعتْ لتكون كذلك.. دفعتُها أنا.. و دفعَها القدر..

ذلكَ اليومُ الّذي ما فتئتُ أذكرُه.. ذلك اليوم البشع.. أسوء يوم في حياتي.. دخل والدي الدّار والعكّاز في يده.. كانت أختي آنذاك في المطبخ.. جذبها من شعرها الفاحم.. أخذ وجهها يحتكّ بأرضيّة الدّار.. جرّها انطلاقا من المطبخ.. وصولا إلى غرفتها.. وقفتُ على عتبة الباب.. أتطلّع إلى مصير أختي وهي تذبل أمام عيني.. أصابت خدوش كثيرة خدّها من فرط الاحتكاك على الأرض.. اصفرّ وجهها.. انتفخت عيناها.. تورّمت جفونها.. لم تستطعْ كلاما.. كانت لا تقوى على ابتلاع ريقها من الصّدمة.. لم يترك لها والدي فرصة الكلام.. تاهت الكلمات على لسانها ولم تجد مخرجا لمتاهتها..

«- هاتِ الرّسائل الّتي كانت تصل لكِ من عنده! تحرّكي!..

- ...»

كانت تومئ برأسها موافقة وتشير عليه بيدها أَنِ أُنتظر قليلا... تحاملتْ على نفسها.. نهضتْ على ركبتيها.. فتحتْ دولاب ملابسها.. أمسكتْ بصندوق خشبي متوسّط الحجم.. وضعتْهُ على الفراش.. فتحتْهُ وأخرجتْ منه الرّسائل.. أخرجتْ منه السّلاح الّذي سيقضي عليها..

« - ما هذا؟.. ما كلّ هذا؟.. متى حصلَ؟.. أين كنتُ؟..»

لم يدر والدي ما يقول.. كان ما اكتشفه فوق كلّ تصوّر.. لم يكن يتخيّله.. كان بودّه لو كان ما سمعه مجرّد إشاعات.. وما رآه مجرّد أوهام.. لكنّه صار حقيقة ملموسة.. بأدلّة وبراهين.. وثبتت إدانة المتّهمة..

« - ما سبب ما يحصل؟.. فسّري لي ما يحصل!.. اِنطقي..»

وقفتْ أختي بكلّ اعتدال.. استجمعت كلّ ما تملكُ من فتات قوّة بقيت لها.. لم تبحثْ عن كلام.. بل وجدتْهُ سريعا..

« - أنا أحبّ أحمد! وأحمد يحبّني وسيأتي عن قريب لخِطبتي.. وسيعلم الجميع أنّه سيصير زوجي على سنّة الله ورسوله.. فأين العيب في ذلك؟ قولوا لي أين العيب؟ هل ارتكبْتُ جريمة كي أُحاسَبَ عليها؟ هل ألحقْتُ ضررا بأحدٍ حتّى أُعاقَبَ؟.. هل أخطأْتُ في حقّكُم؟ بالله عليكُمْ قولوا لي ماذا فعلْتُ حتّى أستحقَّ منكم كلّ هذا؟ هذا حرام..

- حرام؟ ومنذ متى كنتِ تميّزين بين الحلال والحرام يا أُبنة الشّؤم؟.. الحرام هو أنّني أنجبتُكِ ثمّ أبقيْتُكِ على قيد الحياة.. لا بدّ من موتكِ يا مجلبة العار..»

ظلّ يضربُ ويلطمُ ويرفسُ حتّى أُغميَ على أختي.. لا أستطيع أن أصف الحالة الّتي آلت إليها سُكيْنة في ذلك اليوم.. حالة تتجاوز كلّ تعبير ووصف.. حالة ما أقدر على تصويرها بالكلمات.. وعندما استفاقت من إغماءتها.. وجدتْ كلّ شيء كما تركتْه إلاّ شيئا واحدًا تغيّر.. لقد حرقَ أبي كلّ رسائل أحمد كي يطمسَ معالم الجريمة! ويطمس معها آخر أملٍ لسكيْنة في الحياة..

أخذتْ تجهش بالبكاء.. بكاء مسترسل يقطعه شهيق مفزع.. وكأنّها لم تبكِ منذ مدّة طويلة.. وكأنّها تريدُ أن تفرغ جعبتها من الهموم والأحزان.. من الشّقاء الّذي لازمها منذ يوم ولادتها..

أردْتُ أن أُهدّئ من روعها وأواسيها فقلتُ لها بصوت حزين متفائل في آن معًا: « لا تحزني يا أختي! غدا ستُعدّي هذه الأزمة وستعودين إلى أحمد..وسيأتي لطلب يدك وتعيشان سعيديْن.. ستخرجين من هذا الجحيم..»

أخذتُ أُصوّر لها الغد المشرق وأرسم لها لوحة بألوان زاهية.. لكنّها استوقفتني وكأنّها كسرت الرّيشة الّتي كنتُ ألوّن بها.. و بعثرت الألوان فخلطت الأحمر مع الأزرق والأصفر بالبنّي و الأخضر بالرّماديّ لترسم صورة تملؤها القتامة وقالت صارخة بكلّ ما أُوتيتْ من قوّة وجهدٍ لم تعد تملك منهما إلاّ النّزر القليل:« كفى.. أُصمتْ.. لا تقلْ شيئا..لن أسمعك بعد اليوم.. أنتَ من خرّبَ حياتي.. أنتَ ما جعلني

أصل إلى ما أنا فيه الآن.. أنتَ السّبب.. وسوساتكَ.. دفْعُكَ لي لأقوم بأشياء لم أقتنع يوما بصحّتها.. اِستغلَلْتَ جهلي بالحياة لتحريضي على أبي وعلى النّاس والمجتمع.. كم رسمتَ لي الغد مشرقا؟ كم رسمتَ لي الصّبح وبداية حياة جديدة؟ وهاهي حياتي انتهت.. ماذا بقي لي الآن لأعيش من أجله؟ أنا لن ألتقي أحمد مرّة أخرى.. أنا سأُدفَنُ بالحياة في هذا البيت.. سأعيش بقيّة عمري في الظّلام.. هذا إذا بقيَتْ لحياتي بقيّة!.. أُخرج من هنا!.. لا أريد أن أرى وجهكَ ثانية.. لن أسامحك على ما سبّبته لي..»

أنتِ على حقٍّ يا أختاه.. كلّ ما قلتيه صحيح.. أنتِ حقًّا عاقلة وأنا مجنون.. لقد جعلْتُ منكِ فأر تجربة لكنّ الدّواء الفاشل نجح في قتلك كما يموت كلّ من يُقدّم نفسه فداء تقدّم العلم أو تقدّم المجتمع.. لا بدّ لهذا الدّواء أن ينجح.. سيقتل ولا شكّ غيركِ حتّى يصير نافعا.. لكن ما ذنبكِ أنتِ؟ أنتِ إنسان ومن حقّكِ أن تعيشي كالبقيّة.. ذنبكِ أنّك أختي.. أختُ الشّيطان.. فإمّا أن تكوني ضحيّة الوساوس أو أن تصبحي شيطانة مثلي.. لكنّكِ اُخترتِ الخيار الأوّل..

* * *

في تلك اللّيلة لم أنم، أصابني الأرق، كنتُ أُفكّر في كلامها وأراجع أفعالي، ربّما كان ضميري يعذبني، لكنّني ونظرا لصغر سنّي لم أكن آبه للضّمير ولا لنداءاته ولا لعذابه لذلك ما أوليتُ الأمر أهمّيّة أكثر ممّا يستحقّ في نظري.. وبينما كنتُ ممدّدا في الفراش، إذ بي أسمع خطوات تقع بخفّة على السّطح.. نطّت بذاكرتي العفاريت الّتي كنتُ أراها في غرفة سُكينة.. أردتُ طردها فخُيّل إليّ أنّ لصّا صعِد إلى السّطح ودخل المنزل فخفتُ على أختي.. هل يكون أحمد جاء ليحدّثها قليلا؟.. أم أنّه لصّ أتى ليخطفني أو ليخطفها؟ تسارعت الأفكار في رأسي.. لم أدْرِ ما أفعلُ.. بقيتُ برهة من الزّمن أرهِفُ الحسّ وأسناني تصطكّ من الخوف وأنا متكوّر داخل غطاء الفراش.. أمسكْتُ باللّحاف وضغطتُ عليه بأسناني ويديّ المرتعشتين بكلّ ما أملكُ من هلع ورعب.. ثمّ تشجّعتُ.. من فرط خوفي على أختي أزحتُ الغطاء..

وهرولتُ إلى غرفتها لأطمئنّ عليها.. وحال وصولي جال بصري في الغرفة فلم يقع نظري عليها! لم أجدها.. لم أجدها!..

في تلك اللّحظة، ارتسمتْ بمخيّلتي صورة فاطمة اِبنة جيراننا حين لم يجدها والدُها في البيت فزعم الكلّ أنّها خُطِفتْ.. أنّ أحدهم جاء وحملها معه دون أن تستطيع أن تدافع عن نفسها.. هرعتُ إلى السّطح.. لأنقذ سُكينة من براثن الوحش.. صعدتُ السّلالم.. ووقفتُ بالباب.. كان الظّلام حالكا.. كان اللّيل دامسا لا قمر فيه.. أخذتُ أفتّشُ عنها.. عن سُكيْنة واللّصّ.. فتّشتُ عن اثنين لكنّني وجدتُ واحدا فقط يتحرّك في الظّلمة.. كانت أختي تقترب من حافّة السّطح.. صرخْتُ فيها أنِ احذري ستسقطين.. التفتتْ إليّ.. ألقتْ نظرة لم أتبيّنها ثمّ سمعتُها تهمس:« وداعا! » وغابت عن نظري.. مخلّفة صوت ارتطام جسدها بالأرض.. أمام باب الدّار!!..

غلبتني الصّدمة.. لم أذهب إلى الحافّة لأشاهد مصيرها.. خيّرتُ أن أعود إلى غرفتي لأتجرّع النّدم رشفة رشفة من كأس العدم..

انزاحت الظّلمة رويدا.. رويدا وبدأت الخيوط الأولَى من الصّبح تبرز شفّافة العتمة.. شهدتُ الشّروق لأنّني لم أنم طول اللّيل منتظرا صيحة أو ندبا من الجيران لكنّ الظّاهر أنّ قريتنا غطّت في نوم عميق كما غطّ أبي.. عمدتها..

سمعتُ الأذان ينبعث من المسجد الّذي كان قُرب دارنا.. سمعتُ أبي وهو يجلب الشّبشب ليتوضّأ.. قمتُ معه وكأنّ ما كان البارحة لم يحدُثْ.. قمتُ على عادتي.. توضّأتُ مع والدي واتّجهنا صوب باب الدّار.. فتحهُ والدي ويا لهول ما رأى!!

* * *

سرعان ما التفّتِ الجاراتُ حولنا.. ارتفع الصّراخ.. ارتفع العويل وارتفع النّدب واللّطم.. اشتدّت الأحزان وكأنّهم كانوا يعرفون سُكيْنة.. لو عرفتم سُكيْنة وحقيقة الحياة الّتي كانت تعيشها لَزغردتم عِوَضَ النّدب ولَضحكتم وقهقهتم عِوَضَ البكاء والعويل.. يا ناس سُكيْنة كانت ميّتة والآن فقط وُلِدتْ.. كانت حيّة أمامكم لكنّها أمام نفسها ميّتة.. وهي

الآن ميّتة في نظركم لكن والله هي مرتاحة في حياة القبر تحت التّراب أكثر من راحتها في حياة القبر الّذي وضعها فيه عبد الجبّار قبل موتها.. لا تصرخوا ولا تبكوا بل بالعكس افرحوا لأنّها تخلّصتْ من البؤس.. وتشجّعتْ ووضعتْ حدّا لحياتها كما تشجّعتْ من قبل واعترفتْ مكاني بكسرها للمزهريّة منذ خمس سنوات وكما تشجّعتْ وسكنتْ في تلك الغرفة مع الأشباح والأرواح وكما تشجّعت قبل موتها واعترفتْ لأبي بحبّها لأحمد.. كلّ هذا شجاعة.. وانتحارها أيضا شجاعة..

« يا لكَ من شيطان.. أنتَ حقًّا شيطان.. الآن صار الانتحار شجاعة؟ منذ متى كان هذا صحيحا؟ أم أنّك تقنع نفسكَ بصحّته كي لا تحسّ بأنّكَ مخطئ!؟»

الآن فقط عرفتُ أنّكَ تنوي تعذيبي.. الآن فقط عرفتُكَ يا عذاب الضّمير! الانتحار خطيئة في نظركم هذا صحيح لكنّه حدّد مصير أختي.. أذكر حين انتحرتْ سالمة زوجة العمّ محمود في السّنة الفارطة.. حينَ كثُر القيل والقال.. حين قالوا أنّها كافرة.. كافرة.. حين لم تطق العيش مع زوجها.. حين تخلّصت من حياتها.. هي كافرة.. آنذاك لم يغسلوها قبل تكفينها.. لم يُصلّوا لها صلاة الجنازة.. دفنوها كما يُدفنُ الكلب!

حالت كلمة "كافرة" في رأسي ودار كلّ ما حصل لسالمة في عقلي.. هل هذا ما سيحدث لأختي؟ لا.. لا بدّ لي من إنقاذها كما أنقذتني هي من قبل.. لا بدّ لي من إيجاد حلّ.. لا أريد أن يكون مصيرها مثل مصير سالمة.. لا أريد! هل هذا جزاؤها؟.. بعد كلّ ما تحمّلته طيلة عشرين سنة تكون نهايتها بهذه البشاعة؟ أهْوَنُ عليّ أن أموت على أن أترك النّاس ينهشون لحمها وهي ميّتة.. حكاية سالمة مازالت إلى اليوم تتردّد أصداؤها في أرجاء القرية رغم مرور سنة كاملة على وفاتها و ستظلّ هكذا تتردّد وستظلّ عبرة لمن لم يعتبر..ستظلّ سالمة أبد الدّهر نموذج الكافرة المنتحرة.. وهاهي سُكَيْنة اليوم تسير على خُطاها وتقتاد بمنهجها..

« لا! » صرختُ في الجمع الغفير:«أختي لم تنتحر! أختي لم تنتحر..» كنتُ أصرخ لكنّ صوت العويل و البكاء وأصوات الجموع

تبحث عن سبب الوفاة جعلت صراخي لا يكاد يخرج من حلقي.. أحسستُ أنّي صرتُ أخرسا.. شفتاي تتحرّكان وصوتي مسجون في حنجرتي.. لا أحد يسمعُني.. هم لا يسمعون إلاّ ما تمليه عليهم عقولهم.. هم لا يريدون إلاّ سماع ما يرضيهم وما يشبع فضولهم.. تردّدت نفس الكلمة الّتي سمعتها في ليلة وفاة سالمة.. قالوا عن أختي أنّها كفرت حين أقدمت على الانتحار.. ثمّ أخذوا ينبشون قبور الماضي.. أخذوا يذكرون كلّ الأحداث السّابقة.. ويجعلون لها علاقات وطيدة بما حصل ليلتها..

« لقد كانت تقابل شابّا سافرة الوجه.. هل تعتقدون أنّ في الأمر فضيحة؟ لماذا أقدمت على الانتحار؟ لا بدّ أن يكون الدّافع قويّا.. شرفها؟ و لِمَ لا؟ لقد سمعنا أنّ العمدة كاد يقتلها عندما سمع بالحكاية.. الله يحفظنا!..» و زاد الحديث و انتشرت القصّة بسرعة انتشار النّار في الهشيم..أخذت الأقاويل تكبر و تكبر.. ولم أستطع أنا فِعل شيء.. لم أستطع إنقاذ أختي.. كنتُ أضعفَ من أن أنقذ فتاة من براثن ألسنة النّاس الأشدّ حرارة من ألسنة اللّهب.. ألسنة النّاس الّتي تأكل كلّ ما يعترضها من أخضر و يابس ولا تترك ورائها إلاّ رمادا لا تذروه الرّياح!! رمادا يتكدّس ويتكدّس مخلّفا سماء سوداء قاتمة رحلت وتركتني أعيش تحتها لوحدي يا سُكيْنة.. حياة غامضة أعيشها لوحدي.. لم أقدر على إنقاذك هذه المرّة أيضا يا أختاه.. لم أفعل ذلك في حادثة المزهريّة ولم أفعل ذلك في حكاية علاقتك بأحمد ولم أفعل ذلك كذلك اليوم.. أضعتُكِ وأضعتُ نفسي وخسرتُ المعركة الأولى كما خسر العرب معركتهم ضدّ الصّهيون في نفس اليوم.. اليوم رحلتِ واليوم قامت إسرائيل.. سينغرز تاريخ وفاتكِ في قلوب الجميع..

* * *

II

انتهت أيّام الحداد على سُكَيْنة أو قُلْ بدأتْ إذْ اِستيقظتُ على صوتِ والدي ذات صباحٍ يقول: " لعنةُ الله عليهم.. أولاد الكلب.. أفنوا حياته.. هناك في المنفى ثمّ جاؤوا ليبلغونا أنّه مات؟ لن نسكُت على فعلتهم هذه.. سيندمون! سيّدنا المنصف مات؟ ومن بِنا الآن؟ من بِهذا الشّعب؟ كيف سنعيش من بعدكَ يا باي؟"

و علمتُ من كلامه أنّ المنصف باي توفّاه الله.. يا إلهي! وجه والدي مصفرٌّ و عيناه فيهما احمرار وكأنّهما تشتعلان كالبركان.. وصوته مختنق.. إنّه نفس إحساسي حين ماتت رقيّة.. هو ذاته.. الإحساس بالضّياع والرّعب والفزع والثّورة في آنٍ معًا. الثّورة والحقد والضّغينة الّتي يحملها والدي على الاستعمار الفرنسي هي ذات الضّغينة والكره الّذي أحمله أنا على استعمار مجتمعنا الشّرقي واضطهاده لرقيّة!

البلاد هائجة.. وأصوات النّاس ترتفع.. كيف مات؟ الله أعلم.. كيف مات؟ قتله الاستعمار.. مات كما ماتت سكينة! هو لم ينتحر كما فعلت هي صحيح! لكنّ الاستعمار.. لا بدّ أن يكون له يد في ما حصل لكليهما.. أمّا الباي فله شعب يدافع عنه.. ويثور عليه.. ويموت لأجله.. و أمّا سكينة فلها صالح يدافع عنها.. ويثور لها.. ويموت لأجلها.. برغم الاستعمار!

ولم أطق صبرا.. يجب أن أرحل عن هنا.. يجب أن أرحل عن هذه القرية الّتي لم أعد أطيق رؤية من فيها.. لم أعد أطيق رؤية هؤلاء المجرمين الّذين اضطهدوكِ وقتلوكِ يا رقيّة.. الّذين دفعوكِ إلى الهاوية.. و لاموكِ على انحدارِكِ فيها!

ودُفِنتْ سُكَيْنة هناك قرب الوادي في تلك المدفنة إلى جانب أمّي.. هاهي الدّار قد فرغت من المعزّين.. انصرف الكلّ وظللتُ مع أبي لوحدنا.. لا لسنا لوحدنا.. معنا شبح أختي الّذي ما انفكّ يطاردني منذ وفاتها..

* * *

دخلتُ غرفتها فما وجدتُ فيها شيئا تحرّكَ من مكانه.. حذاؤُها البنّي الممزّق والمرتوق ملقى على الأرض جانبا وثيابُها في خزانتها مطمئنّة تنتظر صاحبتها الّتي لن تعود وآلةُ الخياطةِ تجلس في سكون وقد علاها الغبار وطَمَسَ بعض صورها والسّترةُ الّتي كانت بصددِ خياطتها مازالت قابعة على جانب الآلة والقنديلُ مطفئ قد فرغ من الزّيت والحيطان قد تكاثرتْ بها الأشباح وتلوّنتْ بألوان مرعبة بفضل انعكاس ضوء القمر عليها.. لم أحرّكْ شيئا من مكانه.. أغلقتُ باب الغرفة وعدتُ إلى فراشي لا ألوي على شيء..

لكن! ماذا أرى.. هاهي سُكيْنة تدخل من الباب وفي يدها حاوية الغسيل وتقول لي: « سأغسل الثّياب هل لكَ جلباب أو سترة متّسخة تريد غسلها؟»

ظللتُ مبهوتا وأجبتُها بحركة من رأسي نافيا دون أن أستطيع النّبس ببنت شفة غير مصدّق ما أرى.. فأخذتْ تنسحبُ رويدا.. رويدا.. صاعدة السّطح فأخذتُ أصرخُ فيها:

« - ارجعي يا سُكيْنة.. لا تصعدي.. لا أرجوكِ!..»

* * *

« - استيقظ يا صالح.. بسم الله الرّحمان الرّحيم.. أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم..

- من؟ والدي؟.. أين سُكيْنة؟
- سُكيْنة؟ لا بدّ أنّ الصّدمة أثّرت فيكَ يا ولدي..
- لقد كانت هنا منذ قليل..
- عُدْ إلى النّوم يا ولدي.. هذه المرّة الثّانية الّتي تستيقظ فيها من النّوم في هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل منذ وفاتها.. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم..»

كان أبي يغطّيني وينصرف من الغرفة مبسملا وحامدا الله على كلّ شيء.. يا ليتكَ كنتَ تفعلُ هذا مع سُكينة.. لو كنتَ هكذا قبل وفاتها لما حصل ما حصل..

أخذت هذه الكوابيس تتكرّر.. ظلّت تتكرّر و تتكرّر مدّة سنتين.. ليلة بعد ليلة تظهر لي سكينة في المنام.. مرّة أراها مبتسمة ابتسامة خبث ومكر ومرّة أراها في ثوب الزّفاف وإلى جانبها عريسها و هي تصرخ ومرّة أراها سائرة في جنازة مرتدية الأسود وعيناها دامعتان.. لكنّ الكابوس الّذي ظلّ يطاردني دائما هو أنّني أراها نازلة من كرسيّ الزّفّة تاركة عريسها.. تجري.. تصرخ.. تمدّ يديها لتدفع شيئا لا أدري ما هو ثمّ يستقبل صدرها طعنات الخناجر الملقاة من أيدي المدعوّين فتخرّ صريعة.. وأستيْقظ أنا من نومي مفزوعا و كثيرا ما أهرول وسط الدّار ثمّ أعود إلى غرفتي..

كان منظر وفاتها إثر سقوطها من السّطح كذلك يؤرّقني.. كثيرا ما كنتُ أراها تسبح في بحر دمائها والنّاس يولولون ويصرخون.. ظلّت هذه الكوابيس تركض خلفي وتتبَعُني أينما ذهبتُ وأينما حللتُ حتّى ما عُدْتُ أُطيقُ هذه الحياة..

وما إنْ أكملتُ دراستي الابتدائيّة حتّى قرّرتُ الرّحيل.. إلى أين؟.. إلى عالم أوسع من عالم قريتنا.. بعيدا عن العمدة.. عن هؤلاء النّاس.. إلى عالم آخر.. هو عالم المدينة..

* * *

ها قد مرّ على وفاتكِ يا أختي حولان كاملان.. حولان مرّا مرور الدّهر.. جُثّتُكِ قابعة في القبر قرب الوادي وصوتكِ لا يزال يرنّ في أذني « لن أُسامِحكَ على ما سبّبته لي» وصورتُكِ مازالت تطاردني في النّوم واليقظة. وبعد شهر، أرسلني أبي مع حمدة ابن جارنا سالم إلى المدينة.. ها أنذا أسكن في هذه الغرفة في وكالة مع حمدة ومجموعة أخرى من فتيان يكبرونني سنّا.. إنّ الغرفة الّتي أتقاسمها مع رفاقي الآن تشبه إلى حدّ بعيد غرفتكِ الّتي كنّا ندرس فيها.. غرفتي كغرفتكِ مليئة بالأشباح.. لكنْ هذه الأشباح.. الّتي أعيش معها ليست مؤنسة كالّتي تعرفينها أنتِ.. أشباح غرفتي مخيفة.. مرعبة خاصّة إذا ما رأيتُها في أحدِ الكوابيس الّتي صرتُ ألفُ رُؤيتها ملتفّة حولكِ كالجنود.. وهذا الجمع الّذي ترأسينه يركض خلفي شاهرا سيوفا ورماحا وأنا

أعدو.. أعدو.. وأعدو حتّى أسقط من فراشي.. وأوقظ زملائي ويأتي صاحب الوكالة يصرخ فينا أن كفّوا عن اللّعب يا معشر الأطفال!!..

لم يكن صاحب الوكالة يعلم أنّ صالحا ما كان يوما طفلا.. لم يكن يعلم أنَّ تلك النّوبات الّتي تنتابه كانت نوبات أزمة حادّة ألِفَ عوارضها منذ سنتين.. منذ وفاة سُكينة!!.

و رغم كلّ هذا كان عليّ أن أصمد.. أن أقاوم.. أن أسير ضدّ التّيّار.. أتَرَيْن يا أختاه؟ حتّى بعد وفاتك مازلت أحمل نفس المبادئ.. يجب أن نصبر حتّى نحقّق طموحنا.. و لا بدّ أنْ نُضحّي لنصل إلى تحقيقه.. لا بدّ من ذلك..

المدينة يا أختاه عالم أخر مخالف لعالم قريتنا.. عالم واسع أرحب من القرية الضّيّقة.. عالم يختلط فيه الحابل بالنّابل.. كلّ فرد هناك هو فرد.. مسؤول عن أفعاله ولا يتدخّل في شؤونه أحد.. كلّ عائلة تعيش لوحدها لا مجال للفتن أو النّميمة.. نادرا ما تجد أحدا ينتظر لغيره شزرا ونادرا ما تجد النّاس يتناقلون أخبار بعضهم البعض.. لو عشتِ في المدينة لَما وجدتِ حرجا في اللّقاء مع أحمد.. لَما تحدّثَ أحدٌ عنكِ.. لما لاكتِ الألسن القذرة شرفَكِ.. لَما حصلَ ما حصلَ!! أجل المدينة.. شيء آخر.. مبهر حقّا.. لكنّه لم يبهرني أتعرفين لماذا؟ لأنَّ موتَكِ أغشى عيني.. صارت الدنّيا في وجهي ظلاما.. استحالت ليلا لا ينتهي.. ولْتعلمي أنّ الصّبح لن يشرق إلاّ إذا انتقمتُ لكِ.. إلاّ إذا حقّقتُ طموحي!!

* * *

صار كلّ همّي أن أدرس، أن أستغلّ كلّ طاقاتي في الدّراسة وكلام جارنا مسعود مازال يرنّ في أذني «ابنكَ هذا عبقريّ» أجل أنا عبقريّ.. أنا متحدّ كبير وقد راهنتُ على استعادة حقّ أختي الّذي ضاع على يديّ.. حقّها الّذي سُلِبَ منها وهي ما انفكّت تذكّرني به كلّ يوم وكلّ ساعة وكلّ حين وكلّ لحظة.. باللّيل والنّهار وبين الحلم واليقظة.. لن أستسلم يا أختاه.. لا تخشيْ شيئا.. صالحٌ شيطان أو هو شيطان صالح ولا يُهابُ عليه بل يُهابُ منه.. فقط اتركيني وشأني ولا تنغّصي

عليّ حياتي.. أرجوكِ.. ابتعدي لا تقتليني.. أرجوكِ.. أنا لا ذنب لي فيما حدث.. أرجوك..

« - استيقظ يا صالح.. استيقظ..

- من؟ حمدة؟ أنقذني من براثنها.. أرجوكم أنقذوني..

- أصمتْ.. لا تصرخ.. سيطردنا صاحب الوكالة قريبا من هنا بسببكَ.. مَن حينئذ سيستقبلنا.. هل سنَبيتُ في العراء؟

- أنا؟ بسببي؟ ماذا فعلتُ؟

- صُراخُكَ كلّ ليلة صار يزعجه ويزعجنا نحن أيضا.. من هي هذه الفتاة الّتي تظهر لكَ كلّ ليلة في المنام؟

- منام؟ قُلْ كابوس..»

هكذا قضيتُ سنتين في المدينة.. أدرس نهارا ولا أنام ليلا.. صرتُ أخاف النّوم.. صرتُ أتمنّى أن يكون يومنا نهارا بلا ليل حتّى لا أضطرّ للجلوس في الظّلام ونور القمر الخافتِ ينعكس على تلك الأشباح منتظرا طلوع الفجر تماما كما جلستُ تلك اللّيلة المشؤومة منتظرا صوت ينبعث من حنجرة إحدى النّسوة.. لكن متى يأتي الفجر؟ متى ينتهي هذا اللّيل؟

و بمرور الوقت بدأتُ أتركُ الكراريس والكتب والأقلام جانبا لأتفرّغ للمظاهرات الّتي أخذتْ تجوب الشّوارع.. ظننتُ أنّ انخراطي في هذا المجال سوف يبعدني قليلا عن الملل وعنِ عناء التّفكير فيكِ لكنّني لم أنجح في نسيانكِ أبدا.. صار وجودكِ لا غِنًى عنهُ.. اعتدتُ حُضوركِ.. اعتدتُ الكوابيس حتّى صارت أنيستي.. بل صرتُ أنتظرها فقط ليطالعني وجهكِ بملامح تنفعني إلى تحقيق طموحي وتحثّني على السّعي جاهدا لأبلغ ما أريد بلوغه.. خرجتُ مع حمدة في المظاهرات.. سرتُ مع سرب من المتجمّعين الّذين اختاروا الموت في سبيل الوطن وكم مرّة تشتّت جمعنا وتبدّد شملنا وحُمِلَ بعضنا على الأكتاف مصوّتا وحُمِلَ البعض الآخر جريحا في طريقه إلى المستشفى.. وكنتُ كلّما أرى الدّماء تنزف من جسد أحدنا أهرول عائدا إلى الوكالة.. إذ كان لون الدّم يعيد إلى ذهني مشهدا كاملا لطالما عملتُ على نسيانه.. مشهد انتـِ.. أقصد مشهد موتك حينما سقطتِ من سطح بيتنا.. حينما فتح

والدي الباب ورأى جثّتكِ تسبح في بحر الدّم.. ورأسكِ مهشّم.. والنّسوة يولولن ويصرخن.. بحر الدّم هنا هو البحر ذاته الّذي أراه كلّ يوم في المظاهرات.. أراه فتغشى عيني سحابة مظلمة لا أرى معها إلاّ طريق العودة إلى الوكالة.. حين أصل.. كنتُ أغمس رأسي في الكتبِ وأدفنه بين صفحات الكراريس.. هكذا مرّت أربع سنوات بين المظاهرات و الوكالة والدّراسة.. حتّى بلغتُ السّادسة عشر من عمري ونما لي شنب وطالت قامتي واشتدّ عودي وأدركتُ أنّي صرتُ رجلا بمفهوم المجتمع!!

كبُرْتُ وكَبُرَ طموحي معي.. كبُرْتُ فصار عالم المدينة ضيّقا كما المهد يضيق به الرّضيع حين يتعلّم المشي.. ضاقت المدينة على رحابتها وفساحتها.. صارت الأنهج لا تسعُني.. صرتُ أحسّ نفسي ضخما حينما أمرّ وسط الأزقّة.. لا أدري لماذا أخذ هذا الشّعور يجتاحني ويطغى عليّ حتّى دنوتُ من الانفجار.. لم أعُد أطيق.. لم أعُد أُطيق.. يجب أن أخرج من هنا.. من هذه الوكالة.. من هذا الحيّ.. من هذه المدينة!! لأنطلق إلى عالم أرحب..

* * *

وجدتُ نفسي أُدخِل يدي في جيبي وأُخرجُ قطعا نقديّة من الحوّالة الّتي أرسلها لي العمدة.. وضعتُها في كفّ العمّ حسين صاحب الوكالة فقال لي:

« - إلى أين؟

- أرض الله واسعة..

- لِمَ؟ هل أغضبتُكَ لا سمح الله؟ أم أنّكَ تخاصمتَ مع أحد زملائك؟

- لا أبدا.. عليّ فقط الذّهاب..

- حسنا ما دُمتَ مصرّا..

- ...

- لكن.. قبل أن تذهب.. أريد أن أسألك سؤالا.. سؤال جال في خاطري طوال الأربع سنوات..

- تفضّل.. اِسأل..
- أريد أن أعرف.. من هي الفتاة الّتي تظهر لك دائما في المنام؟
- أعذرني.. حكاية طويلة.. لا تغضب منّي.. ربّما ستسمعها يوما أو ربّما ستقرؤها..
- أنا لن أغضب منكَ.. فهذه الإجابة كنتُ أتوقّعها.. أتعرف؟ أنتَ حقّا شابّ رائع.. ستترك فراغا كبيرا في الوكالة.. بالحضن يا ولدي.. اسمع يا صالح لا أريدكَ أن تنساني.. زرني كلّما أُتيحت لكَ الفرصة.. لن أقول لكَ وداعا بل إلى اللّقاء..»

صافحني العمّ حسين ثمّ ارتمى في أحضاني بحرارة ونزلت دموع غزيرة من عينيه.. « لو عاش ابني لكان في مثل سنّك الآن.. لكنّه استُشهِد منذ خمس سنوات في إحدى المظاهرات ».. بكى العمّ حسين كثيرا لكنّني لم أبك.. لم أتعوّد البكاء.. لم يعلّمني والدي العمدة البكاء.. أحسستُ في تلك اللّحظة المؤثّرة أنَّ ما يسكن بين ضلوعي.. ليس قلبا.. بل حجرا أشدّ صلابة من حجر الصّوان.. يزداد يوما عن يوم شدّة وقسوة..

* * *

ها أنذا أسير في شوارع المدينة.. متّجها صوب محطّة القطار.. غرُبت الشّمس آن وصولي إلى المحطّة.. لحظات فقط صارت تفصلني عن العالم الأرحب يا أختاه.. لحظات فقط و أصل إلى العاصمة..

و مرّت هذه اللّحظات عنيدة.. أتى القطار يسبقه صفيره.. كالشّبح مخترقا الظّلمة.. صعدتُ إليه واتّخذتُ مكانا قرب النّافذة.. لم أدرِ كيف امتلأت العربة.. وكيف اكتظّت.. ومتى صعِد كلّ ذلك الخلق.. ذلك لأنّني كنتُ منشغلا بالتّفكير فيكِ أوّلا وبالتّفكير فيما سأجده هناك وما سأفعله ثانيا.. كلّ ما أعرفه أنَّ رجلا رافقني طوال الطّريق.. وظلّ يحادثني عن نفسه وعن العاصمة..

« - العاصمة يا.. عفوا.. اسم الكريم..
- صالح..

- حسنا تشرّفت بمعرفتكَ.. أنا محمود..
- تشرّفنا..
- قلتُ.. العاصمة يا صالح كبيرة جدّا وفيها أشياء كثيرة.. صحيح أنّها مدينة ولكنّها ليست كبقيّة المدن.. هناك الحياة سهلة لكنّها معقّدة..»

قال هذا الرّجل كلاما كثيرا.. ظلّ يحادثني طوال ساعات السّفر وحتّى وصلنا لكنّني لم أسمع كلّ ما قاله لأنّني ظللتُ أحلم وأحلم بما سأجده هناك.. بالعالم الفسيح..

بدأتْ تباشير الصّباح تلوح في السّماء ووصل القطار إلى العاصمة.. نزلتُ الدّرجات ووطأتْ قدمي الأرض وأحسستُ أنّ سحابة من السّحب تأخذني إلى عالم آخر.. أحسستُ أنّ قدماي تنزلقان على الأرض وكأنّني ممتطٍ بساط الرّيح.. ربّت الرّجل الّذي كان يرافقني على كتفي وشدّ على يدي يصافحني ويتمتم بعبارات التّوديع ثمّ وضع في يدي ورقة لم أدر محتواها وذهب في حال سبيله.. أخذتُ أُقلّب الورقة بلا اهتمام ثمّ طويتها ودسستُها في حافظة أوراقي وأخذتُ طريقي لا أدري إلى أين..

أوّل ما كان يجب عليّ فعله هو أن أبحث عن مكان أبيتُ فيه.. طبعا كان عليّ البحث عن وكالة.. عليّ أن أعتمد على نفسي لم يعد حمدة موجودا و أنا كذلك ما عُدتُ حدثا.. ظللتُ أسيرُ وأسيرُ وفي التّاسعة تماما وجدتُ نفسي واقفا أمام وكالة قالوا لي أنّ اسم صاحبها العمّ عثمان.. يبدو أنّه كان مشهورا في العاصمة بحسن أخلاقه وطيبة قلبه.. طرقتُ الباب.. وولجتُ الفناء فبان لي وجهٌ عجوزٌ خطّت السّنون على صفحته أخاديدَ بدتْ لي تعبيرا كافيا عن خبرة طويلة للعمّ عثمان في الحياة.. وما إن رآني حتّى قام من مقعده وأتاني مرحّبا ومسلّما..

« - أهلا وسهلا بكَ يا بنيّ.. هل من خدمة؟
- طبعا أتيتُ لأبحث عن مسكنٍ عندكم..
- السّكن موجود والوكالة مفتوحة.. يبدو لي أنّك غريب عن العاصمة أليس كذلك؟

- نعم.. اسمي صالح.. وقد أتممتُ دراستي في مسقط رأسي وغدا أقدّم مطلبا للصّادقيّة لأدرس بها في مفتتح السّنة الدّراسيّة المقبلة..

- ثبّت الله خُطاك يا ولدي.. إذن ستسكن هنا حتّى تتمّ دراستكَ أليس كذلك؟..

- إن شاء الله..»

كان حديثي مع العمّ عثمان بداية تواصل معه وقد أحسستُ إثر هذا الحوار بأنّه حقّا شخص جدير بالاهتمام.. بأنّه شخص حنون.. بأنّه إنسان!! عكسُ أبي تماما..

تركني العمّ عثمان أسبح في بحر الأفكار وهرول مستندا إلى عكّازه إلى باب الوكالة.. حينئذ أفقتُ من سباتي وأدركتُ أنّه سيخرج ليستفسر عن سبب الضّجيج في الخارج فلحقتُ به و هرولتُ وراءه.. ويا ليتني ما فعلتُ..

أتعرفين ماذا رأيتُ يا أختاه؟.. رأيتُ نفس المشهد الّذي كنتُ أراه في المدينة.. نفس المشهد الّذي رافقني طوال أربع سنوات .. هو ذاته.. هو ذات المشهد الّذي كنتُ أهربُ منه كلّما التقتْ عيني به.. أنا أفرُّ وهو يجري ورائي.. يجري ويجري حتّى فاقت سرعته سرعة القطار الّذي أقلّني من المدينة إلى العاصمة.. ولحق بي إلى الشّارع الّذي يواجه باب الوكالة.. مظاهرة! أجل.. جمع غفير.. أناس يهتفون.. طلبة.. تلامذة.. وكلّ الدّكاكين مغلقة..

قطع العمّ عثمان تفكيري و مشاهدتي بأن أدخلني وأغلق الباب قائلا: « - كالعادة..

- هل تقصد أنّ المظاهرات يوميّة في العاصمة؟

- تقريبا.. لكن ربّما مظاهرة اليوم.. حدث استثنائي!

- ماذا تعني؟

- ألت تعرف أنّ منداس فرانس سيزور اليوم الأمين باي؟»

أجل التّاريخ.. ظلّ يتبعني كذلك بأحداثه وشخصيّاته لكنّه بات الآن خوضا في عالم آخر مخالف للحكايات الّتي كان يرويها لي أبي عن

الحربين العالميّتين الأولى والثّانيّة ومخلّفاتهما..بات خوضا في عالم السّياسة..أنا لا أريد أن أعرف مصير الأمين باي ولا زيارة منداس فرانس العاصمة ولا أيّ شيء من هذا..أنا أريد أن أعرف مصير سُكينة!!

* * *

وهكذا مرّت الأيّام متسارعة.. سجّلتُ اسمي بمدرسة الصّادقيّة وصرتُ تلميذا من تلامذتها.. وأنستُ للعمّ عثمان وأنِس لي.. وجدتُ فيه نِعْمَ الأب الّذي نسيته هناك في القرية.. وجدتُ فيه نِعْمَ النّصُوحِ الحنون الرّؤوف.. العمدة؟ لا تذكّريني يا أختاه بما نسيتُ أرجوك.. أعلم أنّه والدي عِلمي بأنّك لازلت حيّة موجودة في كلّ مكان.. هو والدي، هو من علّمني، هو من أدخلني الكتّاب فالمدرسة فالصّادقيّة، هو من يقدّم لي المصروف إلى الآن.. أعلم أنّه صاحب أفضال كثيرة عليّ لا تُعدُّ لكنْ أين أفضاله عليك أنتِ.. هو اعتنى بي لأنّني صبيّ لكنّه قسا عليك كثيرا.. و قسوته هذه لن يمحوها الدّهر أبدا.. أنا كذلك قاس كيف لا وأنا تلميذه وهو معلّم القسوة والجبروت والطّغيان.. أتعلمين؟ منذ تركتُ القرية لم أرسل له أيّة رسالة.. في حين كان هو يبعث لي بحوّالة تحوي مصاريف الدّراسة وما يفيض عن حاجتي من النّقود كلّ شهر ولم يتخلّف أبدا عن موعده.. ومع كلّ حوالة كان يرسل لي خطابات يبثّ فيها أشواقه وحنينه لرؤيتي ولهفته على لقائي.. خطابات يرجوني فيها أن أراسله.. أن أُطَمْئِنَهُ على صحّتي ودراستي وعن الأجواء في المدينة ثمّ في العاصمة.. لكنّني للأسف كنتُ أحسّ أنّ العمدة كان يكذب.. كان يعبّر عن مشاعر مزيّفة.. كنتُ أحسّ في خطاباته ببراءة وحنان ورأفة وأتذكّر بروده وجموده وقسوته وتتراءى لي معاملته لكِ فأندهش.. كيف لهذا الجبّار أن يُصاب بداء الضّعف الّذي تتجلّى لي أعراضه في هذه الأوراق؟.. هذا الضّعف الّذي ما عهدته منه أبدا.. حتّى عندما كان يوفّر لي حاجياتي وأنا بعدي صغير.. حتّى عندما كان يوصلني إلى الكتّاب.. حتّى عندما ودّعته قبل السّفر إلى المدينة.. ما كان يعطف أبدا.. ما كانت ملامحه توحي بالرّأفة أو بحنان أبٍ على ابنه.. أذكر أنّه كان

يقول لي دائما: «لا تضعف يا ابني حتّى مع نفسك.. بل كُنْ قويّا.. كُنْ قاسيا.. لا تبكِ أبدا..لا تذرف دموعا على أيّة عقبة تعترضكَ.. أصمدْ.. البكاء ضعف..» زرع فيَّ القسوة لكنّه لم يكن يُقَدّر أنّني سأطبّق دروسه تلك عليه أوّلا..

هكذا كنتُ أتأمّل في رسائله ثمّ أمزّقها وألقي بها في حاوية المهملات.. كلّ ما يفعله كان هباء منثورا.. وما أفعله أنا معه كان أقلّ ما يستحقّه.. ما يستحقّه قاتلكِ! أجل! أليس هو من قَتَلَكِ؟ العمدة قتلكِ والمجتمع قتلكِ والظّروف قتلتكِ!.. « لِمَ لا تكون أنتَ من قتلني؟ لماذا تستثني نفسكَ من قائمة المذنبين في حين أنّك زعيمهم وعلى رأس قائمة من أخطئوا في حقّي؟» أنا؟ أنا يا سُكيْنة قاتلُكِ؟ كيف تقولين هذا وأنتِ أوّل من يعلم أنّني أسعى جاهدا لأنتقم لكِ ممّن ظلمَكِ؟ « تنتقم؟ فلتنتقمْ من نفسك إذا بادئ ذي بدء! وعن أيّ سعي تتحدّث؟.. أراك تنتقل من القرية إلى المدينة إلى العاصمة وتسعى جاهدا لا للانتقام بل للاختباء من شبحي الّذي ظلّ يطاردك طيلة أربع سنوات.. من لون الدّم الّذي صار يتراءى لكَ في كلّ مكان..»

معكِ حقّ يا أختاه.. أجل! معكِ كلّ الحقّ في كلّ ما تقولينه.. أنا أسعى لأنتقم لكِ بالهروب! من نفسي أوّلا ومن شبحكِ ثانيا فأين انتقامي لكِ إذن؟..

* * *

ومن العد فاتحتُ العمّ عثمان في قراري أن أشتغل في إحدى الجرائد ككاتب لبعض المقالات بدعوى أنّني لم أعُدْ أريد أن أعيش تحت كفالة أبي.. بدعوى أنّني صرتُ رجلا.. أنّني أريد أن أعتمد على نفسي.. أنّني أريد أن أبني مستقبلي بيدي دون مساعدة من أحد.. لكنّني في الحقيقة كنتُ أبحث عن الثّأر.. كنتُ أريد أن أنتشل سُكيْنة من وضعها!!

« - أنا في الحقيقة يا عمّ عثمان.. أريد أن أعمل!

- من يبحثُ يجد يا ولدي.. فهل بحثتَ؟

- لا.. لكن أردتُ في البداية أن أسألكَ لأنتَ باعتباركَ تملكُ تجربة شافية وضافية في الحياة.. كما أنّك تقيد هنا منذ أمد بعيد فبالضّرورة أنّكَ تعرفُ.. تعرفُ..

- أجل يا صالح.. أصبتَ فيما قلتُ.. أنا أعرف فعلا بعض الأماكن الّتي بإمكانك أن تعمل فيها..

- إذن أرشدني هيّا.. أرجوكَ..

- هناك محلّ لبيع التّوابل في آخر الشّارع على اليمين.. وهناك ورشة نجارة في الحيّ المجاور غير بعيد عن هنا.. وهناك..

- أنا أقصد أليس هناك جريدة مثلا تستطيع قبول شابّ مثلي؟.. إنّي أملك موهبة جيّدة في الكتابة..

- آه.. أعذرني يا ولدي، نسيتُ أنّك طالب بمدرسة الصّادقيّة وأنّ بعض هذه الأعمال الّتي ذكرتُها لا تناسبكَ..

- العفو يا عمّ.. كلّ الأعمال شريفة لكنّني أفضّل الصّحافة..

- لا عليك يا ولدي.. سأتصرّف.. ستعود بإذن الله في المساء لتجد الموافقة على العمل في جيبكَ..

- لا أعرف حقّا كيف أشكرك يا عمّ عثمان.. أنا مدين لك بما تفعله من أجلي..

قلتُ هذه الكلمات ثمّ انصرفتُ تاركا العمّ عثمان يشيّعني بنظرات تصفح مودّة وألفة وحنانا.. هي نظرة الأب لابنه**!!**

* * *

وكما وعدني، نفّذ الوعد.. حقّا صرتُ صحفيّا بجريدة على مِلْكِ أحد أصحاب العمّ عثمان.. كان الأستاذ عبد الوهاب صديقا وفيّا ومخلصا للعمّ عثمان.. كان صديقه المفضّل الّذي لا يستطيع أن يرفض له طلبا ولكن رغم ذلك فقد طلب الأستاذ أن يجرّبني أوّلا قبل أن أعمل في الجريدة.. طلب منّي أن أكتب له مقالا حتّى يختبر قدراتي في الكتابة.. وكنتُ عند حسن ظنّه وأكثر.. أتعرفين كيف نجحتُ في الاختبار؟

بفضلكِ يا سُكينة! كتبتُ مقالا عنكِ.. عن وضعيّتكِ.. بثثتُ في المقال طموحي..

وهكذا كانت بداية تحقيق آمالي.. بداية الانتقام! هكذا قدرتُ على شقّ طريقي نحو المستقبل..هذه هي ثمرة سعيي لآخذ بالثّأر.. ومازالت الثّمار تنضج وها أنا أقطفها.. ثمرة إثر ثمرة!!

وبالتّوازي مع شغلي في الجريدة واصلتُ دراستي بالصّادقيّة.. بهذا أستطيع تحقيق حلمي إذ أخذتُ أضعُ مرتّبي الّذي أحصلُ عليه من شغلي الجديد جانبا وأعيش من الحوّالة الّتي يرسلها لي والدي كلّ شهر.. ومضتْ سنتي الأولى في العاصمة كتبتُ أثنائها كمّا هائلا من المقالات في الجريدة أعجبتِ الأستاذ عبد الوهاب كثيرا فأمر بالتّرفيع في مرتّبي وها أنذا أستفيد من الجريدة بتحقيق طموحي مادّيا ومعنويّا.. أتعلمين يا أختاه ماذا قال لي الأستاذ عندما رفّع من مرتّبي؟

« - أنتَ حقّا عبقريّ.. احرص على التّعلّم في الصّادقيّة فهذا سينفعكَ حتّى تُنير وجه والدكَ مستقبلا..

- والدي!
- أجل.. لكن لم تقل لي متى تعلّمت كتابة كلّ ما كتبته؟
- من الذّنب يتعلّم المذنب!
- ماذا؟
- لا.. لا شيء.. أقصد.. موهبة يا أستاذ.. موهبة من عند الله! »

أ رأيتِ يا سُكَيْنة؟ نفس الكلام الّذي قاله لي العمّ مسعود من عشر سنوات خَلَتْ..أُنيرُ وجه والدي..ووجهي أنا مسوّد بالذّنب بسببه هو!..

* * *

وفي ذلك الصّباح على غير العادة وصلتني البرقيّة.. «توفّي العمدة.. سندفنه غدا إثر صلاة الظّهر»

مات والدي.. مات العمدة.. مات عبد الجبّار.. مزّقتُ البرقيّة كما تعوّدتُ تمزيق كلّ الرّسائل القادمة من قريتنا.. هل أحزن؟ أجل.. هو من وفّر لي كلّ أسباب الرّاحة ولولاه لما صرتُ طالبا في الصّادقيّة..

لكنْ.. سُكينة! هل أنساها.. هل أنسى ما فعله بها؟ هل أخونها؟.. ولِم أحزن وهو من علّمني دروس القسوة.. نظريّا وعمليّا وكانت الضّحيّة الأولى أختي؟.. هل أحضر الجنازة؟ هل أتقبّل العزاء؟ هل أعود إلى القرية؟ نعم سأعود لكنّني لن أحضر العزاء.. وجمعتُ بعض ثيابي.. دسستُها في الحقيبة وتركتُ الحقيبة جانبا ونمتُ.. نمتُ طوال اليوم.. لم أتغدّ ولم أتعشّ.. نمتُ وعيناي مفتوحتان..

حتّى لاح الخيط الأوّل من الفجر.. فقُمتُ.. تكسّلتُ.. غسلتُ وجهي.. تناولتُ فطور الصّباح.. أخذتُ الحقيبة واتّجهتُ رأسا إلى محطّة القطار حتّى أركب أوّل سفرة إلى المدينة.. ركبتُ القطار وأنا على يقين أنّي لن أصل إلى القرية قبل الجنازة.. وقبل أن يودّع أبي مثواه الأخير..

جلستُ قرب إحدى النّوافذ وصفّر القطار معلنا انطلاقه.. أخذ يبتعد عن المحطّة.. لم يبتعد رويدا رويدا.. بل انطلق دفعة واحدة..في سرعة جنونيّة.. حتّى أنّي لم أستطع التّمييز بين البنايات الّتي كانت تبدو لي من النّافذة.. عشى بصري و انتابني دوّار في رأسي.. ما بالقطار يسرع هكذا؟ وكأنّني به يريد إيصالي قبل موعد الجنازة.. أتعرفين يا أختاه؟ لو كان في وسعي السّفر بدرّاجة لما تردّدتُ.. حتّى أصل متأخّرا.. تبّا لهذا القطار الّذي لم يكفّ عن الزّحف على سكّته كما يزحف الأفعوان حين يتأهّب للانقضاض على فريسته.. قِفْ قليلا أرجوك.. قِفْ وإلاّ سأصلُ.. وسأودّع والدي.. وأنا لا أريد توديعه.. أرهقني التّفكير وأضناني النّظر إلى هذه الخطوط المتداخلة عبر زجاج هذا القطار البغيض.. أحسستُ بتعب شديد فقد مررتُ بليلة أرّقني فيها التّطلّع لما سيحدث اليوم واستشراف ما سأجده في تلك القرية الّتي غبتُ عنها طوال خمس سنوات..

وما إن غفوتُ حتّى جاءني صوت الصّافرة مرّة أخرى معلنا وصولنا إلى المدينة.. ما هذا؟ كيف وصلنا؟ كيف؟ بهذه السّرعة؟

«- أرجوك يا سيّدي.. كم السّاعة الآن لو سمحتَ؟

- الآن؟ الحادية عشر و الرّبع..
- شكرا..
- العفو.. هل من خدمة أخرى؟

- لا.. لكَ جزيل الشّكر..»

أخذتُ حقيبتي ونزلتُ من القطار.. إلى أين أنتَ ذاهب يا صالح يا ابن العمدة! لو ركبتَ سيّارة أجرة الآن فسوف تصل إلى المقبرة بعد ساعتين أي على السّاعة الواحدة والرّبع وربّما تحضر الجنازة مع الحاضرين.. لا.. لا يجب أن أذهب إلى القرية الآن.. عليّ أن أنتظر قليلا..

وأخذتُ أسير ورجلاي تقوداننني لا أعرف إلى أين.. أخذتُ أمشي وأمشي وأمشي.. حتّى وجدتُ مقهى فيه بعض الطّاولات الشّاغرة.. انتحيتُ ركنا قصيّا.. وضعتُ الحقيبة بجانبي.. وما هي إلاّ هنيهة حتّى امتلأ المقهى زبائنا لا أعرف متى وفدوا..

« - من فضلك.. يا أستاذ..

- نعم.. تفضّل يا أخ.. هل تريد خدمة؟

- أجل.. هل تنتظر أحدا؟

- لا.. آه.. أعذرني..»

أنزلتُ الحقيبة ورجوته أن يجلس.. فجلس ثمّ قال:

« - أرى أنّك غريب عن المدينة..

- لا أبدا.. عشتُ بها أربع سنوات ثمّ سافرتُ إلى العاصمة من سنة خلتْ..

- عفوا.. انتظر يخيّل إليّ أنّني رأيتكَ من قبل.. قد عرفتُك.. بالحضن يا صالح..

- أُعذرني.. أنا نسيتكَ..

- أنا محمود.. تاجر الجملة.. قد التقينا مرّة بالقطار وأنتَ مسافر إلى العاصمة.. وأنا بحكم عملي انتقل دائما بين مدينتنا هذه مسقط رأسي والعاصمة حتّى أعاين بعض البضائع القادمة من هناك.. أَلَمْ تتذكّرني؟

- بلى.. تذكّرتُك.. بالحضن يا أخي..

- لِمَ لَمْ تراسلني منذ ذلك الوقت؟.. سنة كاملة يا عمّ؟..

- لكن.. العنوان؟

- عفوا..

- قلتُ الإنسان.. الإنسان قد تشغله ظروف أحيانا حتّى عن أبسط تفاصيل الحياة.. قد صرتُ طالبا بالصّادقيّة.. هذا ما شغلني عنك..

- لا عليك.. ورُبّ صدفة خير من ألف ميعاد.. بالمناسبة لقد صرتُ أملكُ شركة تصدير وتوريد.. خذ.. هذا رقم هاتفي إن احتجتَ أيّة مساعدة إنّني أسافر كثيرا إلى خارج البلاد خاصّة أوروبا.. لا تتردّد.. نحن أصدقاء..»

حقّا ما أقوى ذاكرة هذا الرّجل لقد تذكّرني رغم أنّنا لم نجلس مع بعض إلاّ بضعة سويعات في سفرة بالقطار.. وعنوانه عندي ولم أراسله.. يا له من أبله! صالح الّذي كان يذكر أطوار الحرب وهو لم يعشها.. صار الآن ينسى؟ أين ذاكرته؟

واصلتُ سيْري نحو وكالة العمّ حسين.. وفي طريقي إلى هناك.. أخذتُ حافظة أوراقي وجذبتُ الورقة.. «محمود الصّافي.. تاجر جملة.. العنوان..» هذه هي الورقة الرّابحة الّتي سألعب بها مستقبلا.. إن وجدتُ صعوبة.. فسأتّصل به!..

* * *

ها أنذا أمام الوكالة.. لكنْ ما الباب مُقْفل؟.. أسرعتُ إلى دكّان مجاور وسألتُ صاحبه مشيرا إلى الوكالة:

« - عفوا لو سمحتَ.. ألا تعرف أين يمكن أن أجد العمّ حسين صاحب هذه الوكالة؟..

- يبدو أنّكَ غبتَ كثيرا عن المدينة يا ولدي..

- غِبتُ سنة.. لكنْ كيف عرفتَ هذا؟

- لأنّ العمّ حسين توفّاه الله منذ ما يزيد عن السّبعة أشهر..

- إنّا لله و إنّا إليه راجعون.. حسنا.. أُعذرني إن عطّلتُكَ عن عملك يا سيّدي..

- لا أبدا يا ولدي.. فالدّكان صار مُغلقا أكثر منه مفتوحا والشّغل معطّل بطبعه منذ مدّة..

- لِمَ؟.. خير إن شاء الله..

- المدينة مضطربة منذ شهور.. كلّ يوم مظاهرات.. والشّعب كما تعلم يطالب بالاستقلال التّامّ والمستعمِر يماطل إلى الآن.. أُنصرنا على الأعداء يا ربّ!

- يا ربّ.. بالإذن يا عمّ..»

لم يعرف صاحب الدّكّان هذا أنّني عهدتُ هذا الاضطراب.. فطوال السّنة الّتي قضيتها في العاصمة لم تكفّ المظاهرات والإضرابات أبدا.. كما أنّ الاضطراب ساكن بداخلي وليس في الخارج فحسب.. ما هذه الأحداث الّتي تتالت بهذه السّرعة؟.. أحداث ما توقّعتها حصلتْ في ظرف يومَيْن.. موتُ العمدة.. ولقائي بمحمود.. وخبر وفاة العمّ حسين.. أين أنتِ يا سُكَيْنة؟.. أين أنتَ أيّها الصّدر الرّحب الّذي أشكوه مشاكلي؟.. أين هي الأذن المستعدّة دائما لسماع حديثي وشكواي؟ قد قتلتُ كلّ هذا بيديّ هاتين.. وعليّ أن أدفع ثمن ما فعلتُ.. عليّ أن أدفع ضريبة تمرّدي!.. «اِسمعْ يا صالح لا أريدكَ أن تنساني.. زُرني كلّما أُتِيحت لكَ الفرصة.. لن أقول لكَ وداعا بل إلى اللّقاء..» أين هو هذا اللّقاء يا عمّ حسين.. أين هو؟ كانت الموتُ أسرع منّي إليكَ.. ما بهذا الزّمن الغدّار.. ما به يريد أن يحرمنا من أعزّ النّاس علينا.. قد حرمني الموتُ أمّي.. ثمّ أختي.. والآن أنتَ يا عمّ حسين.. لماذا كُتِب عليّ أن أعيش العذاب طول حياتي.. فلا أنعم بلحظات السّعادة حتّى يسرقها الزّمن منّي.. لا تصل لقمة إلى جوفي إلاّ ويخطفها الزّمن حتّى قبل أن أتذوّقها أو ألمسها بلساني.. لِمَ؟!

تماديتُ في الطّريق أمشي تقودني رجلاي.. حتّى وصلتُ إلى محطّة سيّارات الأجرة.. لا أدري كيف وصلتُ.. المهمّ أنّي وصلتُ.. كم السّاعة الآن يا ترى؟ ليس مهمّا.. أنا متأكّد أنّي أضعتُ الوقت الكافي حتّى لا أصل إلى القرية مبكّرا.. حتّى أصل متأخّرا.. بعد أن يُدفنَ العمدة..

عندما ركبتُ السّيّارة.. طلبتُ من السّائق أن يقود في السّرعة القانونيّة أو حتّى أقلَّ.. ظنّ الرّجل أنّني حريص على سلامتي ولكنْ لا أحد يعلم ما يدور بخلدي..

* * *

وبعد ساعتين وصلتُ..

وضعتُ قدمي على الأرض وأحسستُ أنّي ألامس تربة عزيزة على قلبي.. أخذتُ الحقيبة.. ناولتُ السّائق النّقود.. وأغلقتُ باب السّيّارة.. اِنصرفت السّيّارة تاركة ورائها غبارا كثيفا صنع سحابة بنّيّة كبيرة منعتني من رؤية البيوت البيضاء الصّغيرة بأبوابها الزّرقاء وصومعة المسجد الّذي كان العمدة يقصده كلّ صلاة .. منعتني هذه السّحابة من رؤية قريتي العزيزة الّتي هربتُ منها.. خوفا منكِ يا سُكَيْنة!.. وها أنا ذا أعود إليها وقد حقّقتُ جزءا ضئيلا من طموحي الّذي سعيتُ من أجل تحقيقه كثيرا..

أنزلتُ الحقيبة على الأرض وأخذتُ أُبعِدُ الغبار بكلتا يديّ وكأنّني طفل رضيع يحاول إبعاد قطعة القماش الّتي وضعتها له أمّه على المهد حتّى تبعد عنه الحشرات المؤذية..

ثمّ صفا الجوّ.. أمسكتُ بالحقيبة وانطلقتُ أسير في الحقل حتّى وصلتُ إلى مشارف القرية.. كلّ شيء على حاله.. لم يتغيّر شيء.. كأنّني لم أغب خمس سنوات بحاله.. أخذتُ أسير وأنا أحسّ أنّ كلّ العيون ترقبني.. أنّها تنظر إليّ نظرة احتقار ولوم وعتاب.. أحسستُ أنّها نظرات تلومني على ما اقترفت من ذنب في حقّ أختي وفي حقّ أبي من بعدها.. لكنْ لِمَ ينتابني هذا الشّعور رغم أنّني متأكّد أنّهم لم يعرفوا حتّى أنّي ابن العمدة.. أنّي ابن من دُفِنَ منذ دقائق.. أنّي أنا المعنيّ بأمر الجنازة.. كيف يعرفونني وقد صرتُ شابّا.. رجلا وما عدتُ صالحا ذلك الصّبيّ الشّقيّ العنيد الّذي يهرب من الكتّاب ويترك المؤدّب في حيرة من أمره.. صالح ما عاد صالحا الّذي عرفتموه قبل وفاة سُكَيْنة.. صالح الآن صار يبحث عن الانتقام لكنْ ممَّ؟.. ممَّ الانتقام؟ من السّراب؟ كيف ستنتقمُ لسُكَيْنة يا صالح؟ هيّا يا صالح.. أُقصدْ أوّلا منزلك.. أُقصد المنزل الّذي قضّيتَ فيه طفولتكَ و قضّتْ فيه أختُكَ نحبها!

ويمّمتُ وجهي شطر الطّريق المؤدّية لبيت العمدة.. هاهي حومتنا لكن من أين ينبعث صوت مرتّل القرآن؟.. هل من بيتنا؟ أيُعقلُ؟ من هنالك في بيتنا حتّى يتقبّل العزاء؟ اقتربتُ.. اقتربتُ أكثر.. والخوف

يزحف إلى قلبي أكثر فأكثر.. لا أريد أن أظهر لهم.. كيف سيستقبلون هذا الابن العاقّ الّذي لم يحضر جنازة والده؟.. هاهو بيتنا.. لكنْ.. أين الكراسي؟ وأين المعزّون؟ وباب الدّار مُقفلٌ.. كلّ ما جال بخاطري آنذاك..أن أهرول إلى البيت حتّى أحتمي به من هؤلاء النّاس.. ومن حسن الحظّ أن كان الزّقاق فارغا.. فأسرعتُ إلى العتبة.. جذبتُ المفتاح الضّخم من درج الحقيبة.. أدرتُهُ في القفل.. ففُتِح الباب!!..

* * *

آه! يا بيتنا العزيز.. آه! مضت خمس سنوات على فراقك كأنّها دهر بحاله.. مرّت السّنون ولم يتغيّر فيك شيء.. ظللتَ كما أنتَ.. كم اشتقتُ إليكَ.. واشتقتُ لحنانكَ وعطفكَ.. وابتسامتكَ وعينيكَ.. ويديكَ تربّتان على كتفي.. سامحني! فابتعادي عنكَ كان رغما عن أنفي.. وعودتي إليكَ الآن أيضا خارجة عن نطاق إرادتي.. إنّني مظلوم يا بيتي فلا تعتب عليّ.. إن تركتُ هذه الشّجرة فيكَ ولم أسقِها.. إن تركتُ هذه الحيطان ولم أتعهّدها.. إن تركتُ شيخا أعطاني كلّ ما يستطيع أن يعطيه حتّى أصير رجلا فقابلتُ معروفه بالنّكران ولينه بالقسوة وحبّه بالجفاء.. لكنّ كلّ هذا كان رغما عن أنفي.. صدّقني!

أغلقتُ الباب.. وولجتُ فناء الدّار.. كانت الأرضيّة مغطّاة بالأتربة والغبار، وفي السّقيفة انتصبت المائدة على الحصير.. وهاهي باحة الدّار مقفرة خالية من كلّ معنى للحياة ما عدا حبل الغسيل الّذي يصل شبّاك غرفة المرحوم بشبّاك غرفتي.. وحتّى الحبل كان فارغا.. رماديّ اللّون متآكلا.. كان الحبل وحيدا.. مثلي.. قابعا ينتظر نهايته.. لكنْ لا.. لن تكون نهايتي كنهاية هذا الحبل الّذي لا بدّ أن تنال منه العناصر منالها وتعبث به و تتركه جثّة هامدة!.. لن أنتظر نهايتي قابعا مستسلما لمصيري! وهاهي الشّجرة الّتي لطالما تعهّدْتِها يا سُكَيْنة بالسّقي وتسلّمتُها أنا بعدكِ يافعة متينة قد شاخت وكَبُرت وهَرُمت وصارت أوراقها الصّفراء اليابسة مبعثرة ذات اليمين وذات الشّمال في كلّ ركن من أركان هذا البيت الحزين وفي كلّ شبر.. معثرة كما ذاتي مبعثرة.. مضطربة.. ربّما لن تقدري أيّتها الشّجرة على العطش أكثر من هذا..

ربّما ستموتين كما ماتت أمّي متعطّشة لتلبية رغبة زوجها وكما ماتت سُكَيْنة لعجزها عن تحمّل الظّلم وكما مات العمدة بعدها عجزا عن تحمّل الحياة وحيدا!!

لا أيّتها الشّجرة الغالية لن تموتي.. لن أتركِكِ تموتين بهذه البساطة.. سأسقيكِ.. سأروي عطشكِ.. ولو كان ذلك من تهاطل عرقي أو دمي أو دموعي!..

اتّجهتُ صوب المطبخ لأحضر سطل ماء.. هاهو المطبخ وكأنّه لم يشهد دخول أحد منذ تركتُ أنا المنزل.. الأواني مغسولة وممدّدة على الطّاولة ومغطّاة بِخرقة كبيرة ملوّنة وكانون الفحم مُنْتَحٍ ركنا قصيّا تحت هذه الطّاولة.. والماء! أين الماء؟ الماجل.. أسرعتُ إلى الدّلو المعلّق في مسمار في الحائط.. أخذتُ الدّلو متلهّفا.. أزحتُ غطاء الماجل وألقيتُ بالدّلو منتظرا سماع صوت ارتطامه بصفحة الماء لكنّني وبعد طول انتظار لم أسمع إلاّ صوت ارتطامه بقاع الماجل الفارغ.. دويّ مرعب أشعرني بأنّني في صحراء قاحلة.. ولا قطرة ماء أشربها ولا قطرة أسقي بها شجرتي العطشى!

* * *

فتحتِ العجوز الباب.. فطالعها وجه صبوح بان عليه العزّ.. كسوة سوداء.. وسترة بيضاء.. وربطة عنق.. وحذاء جديد يلمع.. وشاربان ونظّارات على العينين..

« - تفضّل يا ولدي.. هل من خدمة؟

- أجل لو سمحتِ يا خالة.. أريد قلّة ماء إن لم تَرَيْ مانعا..

- قلّة؟

- نعم.. لو سمحتِ أرجوكِ..

- حسنا يا اِبني.. انتظرني قليلا..»

غابت الخالة قليلا عن ناظري.. دخلت لتجلب لي الماء.. الأرجح أنّها لم تعرفني والحمد لله.. لكنّني عرفتها.. إنّها الخالة خدّوجة الّتي

كانت تجلب الصّوف لسُكيْنة من السّوق.. أظنّ أنّها تناهز السّبعين من عمرها الآن.. يا لها من امرأة قويّة..

« - خذْ يا ولدي.. هاهي القلّة قد ملأتُها لكَ ماءً..

- شكرا جزيلا يا خالة..

- انتظر قليلا.. أظنّ أنّني رأيتُ هذا الوجه قبل اليوم..

- ماذا؟

- إنّكَ تُشبه كثيرا..

- يخلق من الشّبه أربعين يا خالة..

- أجل معكَ حقّ.. أعذرني يا ولدي قد نالتِ الشّيخوخة من عقلي وأعشتْ بصري.. لقد ظننتُكَ صالحا ابن العمدة.. إنّه بعيد عن هنا منذ خمس سنوات.. لم تصلنا أخباره منذ ذلك اليوم الّذي تركَنا فيه ووالده الّذي توفّي البارحة ظلّ يتوق لمرآه حتّى آخر لحظة في حياته.. كان من المفترض أن أكون في بيت سي سالم لأهتمّ مع زوجته بالمعزّين فأنا من اعتنيتُ بالمرحوم بعد سفر ابنه.. خدمتُهُ أربع سنوات.. وأنا أطبخ في بيتي وأنقل الغداء أو العشاء إلى هناك.. حتّى الماجل.. طلبتُ من ابن أخي أن يُفرِغه ويُغلِق الثّقب الّذي يمرّر المياه من السّطح إلى الماجل.. لم يعُد في حاجة إليه مادُمتُ أنا أجلبُ له الماء من بيتي في كلّ يوم.. كما أن الماجل صار متّسخا جدّا ولم يقدر العمدة على جلب من يقوم على رعايته فذلك يكلّفه كثيرا.. خاصّ وقد صار يُرسل كلّ ما يغنمه من شغله إلى ابنه في العاصمة.. أوه! آسفة يا ولدي.. قد عطّلتُك.. أُعذرني.. إنّني عجوز ثرثارة.. شغلتُك بحكايات لا تعنيكَ..

- لا يا خالة.. أرجوكِ لا تعتذري.. بالعكس.. حديثكِ جميل.. إنّكِ امرأة طيّبة.. أشكركِ على هذه قلّة.. سأعيدها لكِ حالما أفرغ من استعمالها..

- لا شكر على واجب يا ابني.. عفوا لم تقل لي.. ما اِسمكَ؟

- اِسمي؟ اِسمي صا.. صابر..

- عاشت الأسماء يا ولدي.. أنا خالتكَ خدّوجة لو احتجتَ لأيّ شيء فلا تتردّد عن طلب مساعدتي.. أنا دائما في الخدمة وكلّ القرية تعرفني..
- العفو يا خالة.. أتركُكِ الآن في أمان الله..
- في أمان الله يا ولدي..»

نعم.. كلّ القرية تعرفكِ.. و أنا كذلك أعرفكِ.. أكثر من نفسي.. أعرف أنّكِ منار القرية كلّها.. تصولين فيها وتجولين.. تتفقّدين كلّ كبيرة و صغيرة.. تساومين الباعة على أسعار الخضر والغلال.. تدلّلين الأطفال.. وتساعدين الكبار على قضاء شؤونهم.. نجدكِ دائما معنا في الأفراح والأتراح.. تقومين على خدمة الكلّ وسعادتهم.. وتعرفين كلّ ما يجدّ في القرية مهما كان تافها.. من خلّف ومن تزوّج ومن وُلِد ومن تُوُفّي.. ولا يغيب عنكِ خبرُ أيٍّ كانَ.. آه! يا خالة.. كم كنتُ سعيدًا وأنتِ بيننا.. تغزلين الصّوف مع سُكَيْنة وتدلّلينني.. كنّا أطفالكِ الّذين حرمكِ الزّمان منهم..أنتِ حقّا ثرثارة.. لكنّ ثرثرتكِ اليوم كانت نافعة لأوّل مرّة.. دلّتني إلى الإجابة على كلّ التّساؤلات الّتي حيّرتني منذ دخلتُ دارنا.. وفهمتُ سبب نفاد الماء من الماجل.. وسبب عطش الشجرة.. لا بد أنّ العمدة كان قد أهملها منذ تركتُ أنا البيت.. يا للقسوة!..

ووصلتُ إلى الدار.. وهرعتُ إلى الشجرة أسقيها.. صببتُ كلّ الماء الذي مُلأَت به القلّة.. ولم أترك لنفسي قطرة واحدة.. أحسستُ أنّ الشّجرة العطشى أخذت تشرب وتشرب بنهم شديد.. كأنّني أنقذتها من الموت عطشا.. كأنّها وجدتْ أخيرا بئرا في صحراء قفراء تمتدّ كثبانها الرّمليّة حتّى حدود الأفق.. أحسستُ أنّها لم تصدّق نفسها بعدما رأتْ بركة الماء في الصّحراء فرجّحت أنّها ترى السّراب الّذي يخاله العطشان ماءً.. وسَعِدت بعدما لمِستِ الماء بكلتا يديْها.. فشربت منه حتّى ارتوتْ وغسلتْ به وجهها وأطرافها بسرعة خوف أن يفلت من بين يديْها ويروح بلا رجعة.. هكذا كانت الشّجرة تحسّ حينما سقيْتُها ماء القلّة..

وأنتِ يا سُكَيْنة.. أين أنتِ؟ أين وجهكِ الصّبوح يطالعني كلّ صباح بابتسامة مشرقة كابتسامة الوليد.. لكنّها ابتسامة تستر أحزانا.. تبتسمين

لي ولا تعرفين أنّ القدر يحوك من ابتسامتكِ خيوطا لينسج بها أكفانكِ.. ألن تعودي؟ ألن أراكِ مرّة أخرى؟ لا يا صابر.. لا تبكي.. اصبر قليلا.. فقد اقتربتَ من تحقيق طموحكَ.. والآن تبكي؟ أين قسوتكَ الّتي علّمها لكَ والدكَ؟ هل ماتت بموته؟ هل دُفِنتْ في قبره؟ لا.. أبدا! لم تمت القسوة ولن تموت أبدا في قلبي مادام ينبض بالحياة.. لن أقدر على العيش بدون القسوة..

ودخلتُ إلى غرفتكِ يا سُكيْنة.. دخلتُها.. أجل! لأبحث عنكِ فيها.. فلم أجدكِ.. بل وجدتُ الأشباح الّتي تركتِها.. لقد كبُرت الأشباح يا سُكيْنة.. لم تظلّ صغيرة كما كانت.. صارت ضخمة.. بشعة.. مرعبة.. وكأنّها نسيت الألفة والمودّة بعدما تركتِها وذهبتِ.. صارت متوحّشة.. برّيّة.. تهجم على كلّ من يقترب منها!.. غرفتكِ يا سُكيْنة لم تعدْ غرفتكِ.. صارت وكرا مخيفا يخشى زائرُهُ المكوث فيه طويلا.. لكنّني مكثتُ فيه.. مكثتُ أتأمّل كلّ شبر فيه.. حذاؤكِ البنّيّ.. وآلة الخياطة.. وقنديل الزّيت.. ما تغيّر شيء من مكانه منذ وفاتكِ.. وكأنّ العمدة احتفظ بغرفتكِ كآخر تذكار من إحدى ضحاياه!.. هذه الغرفة الّتي لطالما درسنا بها.. وعلّمتكِ فيها كيف تقرئين أسمك و تكتبينه.. أين كلّ هذا؟ أين ذهب؟ ما هذا؟.. ما لهذه الأشباح تركض خلفي؟ ابتعدي يا مجنونة..

ركضتُ وركضتُ وأغلقتُ باب الغرفة إثر خروجي.. أغلقتُهُ بإحكام وهرولتُ إلى القلّة.. أخذتُها ويمّمتُ وجهي شطر باب الدّار.. فتحتُهُ.. نظرتُ يمنة ويسرة.. ما وجدتُ أحدا.. حملتُ الحقيبة والقلّة.. أغلقتُ الباب.. وهرعتُ إلى بيتِ الخالة خدّوجة.. أعدتُ لها القلّة.. أخذتْ كعادتها تسألني أسئلة عديدة.. وأنا لا أسمع.. لا أسمع.. أصابني صمم.. لا أجيب.. لا أجيب.. ثمّ ودّعتها.. ورُحتُ لا ألوي على شيء!

أتعرفين إلى أين ذهبتُ يا سُكيْنة؟.. إلى الوادي! قادتني رجلاي إليه دون أن أُدرك.. وجدتُ نفسي واقفا على ضفّته..

هاهو صالح يجري ويلعب مع الصّبيان يرشّهم بالمياه ويرشّونه ويُلقي بالحجارة فيُحدِث صوت ارتطامها بالسّطح رنينا عذبا تسمع إثره ضحكات صالح يُرجِع الجبل صداها.. وينتصف النّهار وتتردّد الضّحكات على طول المسافة الفاصلة بين الوادي والبيت ويصل صالح

بثيابه مبتلّة وتستقبله سُكينة باللّوم المشبع بالحنان والمودّة فتغيّرها له.. أين هي سُكينة الآن؟.. أين هي تلك الضّحكات؟ لم تبق إلاّ آثار الماضي السّعيد.. لم يبق إلاّ هذا الوادي وعلى صفحته انمحت صورة صالح الصّغير البريء وارتسمت صورة صالح آخر.. هو صالح المنتقم! ولم تبق إلاّ أطلال دارسة أبكيها.. قبر أختي وقبر أمّي اللّتان ماتتا وراحتا شهيدتي الظّلم و الاستبداد.. ظلم أبي وجبروته.. المرحوم!

* * *

وها أنا ذا قد عدتُ إلى العاصمة ومرّت على عودتي الأيّام.. وأنا جالس أراجع الأحداث الّتي مرّت بي.. ثلاثة أيّام كاملة مرّت وأنا على حالي.. هل ما فعلتُه صحيح؟ أم أنّني أخطأتُ حين تغيّبتُ عن جنازة والدي؟ « لا ينفع النّدم بعد فوات الأوان! كلّ شيء انتهى.. دُفِن العمدة..! » لا! لم ينته كلّ شيء.. مازالت سُكينة.. سُكيْنة لم تمت.. لكن أين هي؟ كنتُ جالسا هكذا.. أراجع أفكاري.. تتقاذفني الأسئلة.. وتتلاعب بي الحيرة.. إذ بالعمّ عثمان يطرق الباب..

« - عذرا يا ولدي إن قطعتُ حبل أفكاركَ لكنّ هذه الرّسالة وصلتْكَ الآن.. وجبَ عليَّ أن أسلّمك إيّاها.. لا بدّ أنّ هناك أخبارا جديدة من القرية..

- من القرية؟ من يا ترى سيرسل لي خطابا.. حتّى العمدة.. توفّاه الله..

- العِلم عند القدير يا ولدي.. اِفتح الظّرف وستعرف..

- معك حقٌّ..»

انصرف العمّ عثمان وأغلق الباب وتركني أحاول اكتشاف خبايا هذه الرّسالة المُبْهَمَة.. وفتحتُها.. هذا ليس خطّ والدي.. ممّن هذه الرّسالة يا تُرى؟ و ماكلّ هذه الأوراق؟

صديقي العزيز صالح،

الأكيد أنّكَ لم تعرف خطّي.. هذه أوّل مرّة أبعث لكَ فيها رسالة.. إنّني أكتبها لَكَ الآن على لسان عبد الجبّار عمدة قريتنا والصّديق الحميم لأبي سالم.. أما زلتَ تذكره؟ أكتُب هذه الرّسالة بخطّ يدي لأنّ يدا والدك

عاجزتان عن الحركة.. أصابه شلل أقعده الفراش منذ شهر تقريبا.. وهذا ما يقوله لكَ..

ابني صالح.. إنّني أُحتَضَر.. ارحمني يا بنيّ برؤية وجهكَ قبل أن أقابل وجه خالقي الكريم.. أعرف أنّكَ تعاملني الآن بنفس القسوة الّتي عاملتُ بها أُختكَ سُكيْنة من قبل.. لكنّكَ حقّا مذنب في حقّي.. أن أموت قبل أن أراك هو العقاب ذاته الّذي ربّما سيُرضيك حتّى تنتقم منّي!.. لكنّني والدكَ.. والدكَ يا صالح ولستُ غريبا عنكَ حتّى تعاملني بهذه البشاعة.. أنا لا أستحقّ منكَ كلّ هذه القسوة وهذا العذاب.. لكن رغم كلّ ما سبَّبْتَه لي من ألم فأنا لن أنسى أبدا أنّكَ ولدي الّذي ضحّيتُ بكلّ شيء من أجله.. ولازلتُ أضحّي.. كلّ هذه الأوراق الّتي أرفقتُها برسالتي.. تَخُصّكَ.. إنّها تُثبتُ حقوقكَ في امتلاك كلّ ما سأتركه من بعدي.. وآخر طلب لي عندكَ أن تلحقني قبل أن أسلّم روحي للرّحمان.. عندي كلام كثير لأقوله لكَ..

هذا كلّ ما قاله العمّ عبد الجبّار يا صالح.. كتبته لكَ تحت إلحاحه الشّديد.. وها أنا أطلب منكَ أن تأتي يا صالح فإن مات والدكَ قبل أن يراك فستظلّ حياته في رقبتكَ..

والسّلام

صديقك حمدة

لا بدّ أنّ أبي قد كتب هذه الرّسالة قبل وفاته بيوم واحد وإلاّ ما الّذي يفسّر تأخّر وصولها.. هاهو القدر يخطف منّي مرّة أخرى عزيزا على قلبي قبل أن تصل الرّسالة وأفهم عذابه وها أنا ذا مذنب مرّة أخرى في حقّ والدي الّذي منحني كلّ ما يملك قبل وفاته وبعدها!

أعدتُ الرّسالة في الظّرف لكنّني هذه المرّة لم أُلْقِ بها في سلّة المهملات بل وضعتُها على الطّاولة دون أن ألمس تلكَ الأوراق الّتي تثبت حقوقي في امتلاك كلّ شيء.. أقصد كلّ ما تركه العمدة.. وما الّذي يهمّني؟.. ما الّذي تركه العمدة؟ ترك شجرة ثورة قد نمت وأثمرت بذور حقد وقسوة.. ترك كتلة من اليأس يدفعها حبّ الانتقام إلى الوراء.. ترك ولدا كبُر وكبُرتْ معه الأحزان.. ما عاد ذلك الطّفل صالحا الّذي يفرّ من المؤدّب ليبحث عن اللّهو والمرح بل صار صالحا

الّذي يفرّ من نفسه ليبحث عن الثّأر.. عن سُكيْنة الّتي رسمَها في خياله ولم يجدها في الواقع.. لكن لا بدّ أن يجدها..

قام من مقعده واتّجه إلى سترته المعلّقة في مسمار في جانب الخزانة.. فتّش قليلا في الجيب ثمّ جَذَبَ الورقة.. هذا هو رقم هاتف محمود..

* * *

فتح باب المغازة وولجها قائلا مشيرا ببنانه إلى الهاتف:

« - عفوا يا آنسة.. هل تسمحين لي باستعمال الهاتف؟

- تفضّل..

- شكرا جزيلا لكِ..»

رفع السّمّاعة باليد اليسرى وأدار الرّقم باليمنى..

« - آلو.. شركة الصّافي إخوان للتّصدير والتّوريد. هل من خدمة؟

- أجل.. لو سمحتِ..أريد أن أحادث السّيّد محمود..

- أنا آسفة.. لقد خرج منذ حوالي ساعة ولم يعد بعدُ..

- حسنا..

- آه! انتظر قليلا لقد وصل لتوّه..

- إذن قولي له صالح..

- لحظة واحدة من فضلك..»

يا للحظّ السّعيد.. من تاجر جملة بسيط يصير مالكا لشركة تصدير وتوريد؟ ومشاغل.. وسكرتيرة.. ومواعيد.. أين أنتَ مِنْ هذا يا صالح يا ابن المرحوم العمدة!

« - آلو..

- لا بدّ أنّك محمود.. هل عرفتني؟

- الحقيقة.. سمعتُ صوتك قبل اليوم.. آه.. انتظر قليلا.. أنت صالح الصّحفيّ الّذي مازال يدرس بالصّادقيّة..

- كيف حالكَ؟ و كيف حال الشّغل؟

- آه يا صالح لو تعرف كم أنا متعب..

- اسمع يا محمود لا يمكنني أن أطيل الحديث أكثر.. يجب أن نلتقي في أقرب فرصة..
- طبعا ولِمَ لا يا صديقي.. متى؟ وأين؟ وشُبّيك لُبّيك تجدني بين يديك..
- غدا صباحا..
- عذرا غدا لديّ عمل في العاصمة..
- أنا أيضا في العاصمة..
- إذن اتّفقنا.. في مقهى الصّفصاف.. إلى اللّقاء..»

وما إن أشرق صباح اليوم الجديد حتّى هرعتُ إلى ثيابي ألبسُها واتّجهتُ مباشرة إلى مقهى الصّفصاف الّذي يقع على بعد ربع ساعة من الوكالة سيرا على الأقدام.. وعندما وصلتُ وجدتُهُ ينتظرني وعيناه تبحثان وتتفحّصان كلّ وجه يمرّ.. عندما رآني وقَفَ وقال:

« - تعال يا صالح أنا هنا.. كيف حالُكَ وحال الدّراسة معكَ؟

- بخير..
- ما بكَ تتحدّث ببرود وكأنّه لم يمرّ أسبوع على افتراقنا..
- لا أبدا.. ولكن هناك موضوع يشغل بالي هذه الأيّام..
- آهاه.. تطلّع في عينيّ هكذا.. ما بوجهكَ شاحبا وجسمكَ هزيلا ولحيتك غير محلوقة؟ لا تقل لي..! لقد فهمتُ..
- فهمتَ؟ ماذا فهمتَ؟
- من هي؟.. قلْ لي من هي؟
- عمّن تتحدّث؟
- عن الّتي شغلتْ عقلكَ!
- غريب أمركَ يا أخي! أنا أمامكَ أغرق وأنتَ واقف تسخر منّي؟
- في بحر الهوى؟
- لا فائدة.. أنا آسف أنّي عطّلتُك عن عملكَ.. بالإذن..
- انتظر يا رجل.. إلى أين أنتَ ذاهب؟

- عائد من حيث أتيتُ.. ما كان عليّ أن ألتجئ لكَ ولا أن أطلبَ منكَ مساعدة..
- اجلس يا صديقي.. الحبّ ليس حراما ولا عيبا..
- صديقكَ؟ ومنذ متى أنا صديقك؟.. تقابلنا مرّتين أو ثلاثا فصرنا أصدقاء؟ ما أسهل الصّداقة..
- لِمَ إذنْ ناديتني وطلبتَ منّي المجيء لمساعدتكَ لولا أنّك تعتبرني الأقرب إلى قلبكَ..
- ...
- اسمع يا صالح.. هدِّأ من روعكَ وأنصت لي جيّدا.. أنا أعرف أنّ أعصابكَ ثائرة وأنّه ما كان عليّ أن أستفزّك.. لكن يجب عليك أن تعلم أنّني أحبّ الإنسان الواضح الصّريح وكثيرا ما حاولتُ فكّ رموزكَ وإنارة غموضك ولكنّي لم أفلح.. افتح لي صدركَ وقُلْ لي ماذا تريد بالضّبط؟
- ليس ما يشغل بالي حبّا كما كنتَ تعتقد.. أنا لا أفكّر في هذه الأمور التّافهة الآن..
- إذنْ..
- أنا أفكّر في السّفر خارج البلاد..
- ومشكلتكَ أنّكَ لا تملك المبلغ الكافي للسّفر.. لا عليكَ.. بإمكاني أن أجعلكَ تسافر إلى إيطاليا بمبلغ رمزيّ..
- لا يا محمود.. لا.. ليس هذا هو المشكل.. ما يشغل تفكيري هو العمل..
- ولهذا المشكل أيضا حلّ مناسب..
- ما هو؟ عجّل أرجوك..
- لديّ صديق حميم هناك في باريس.. يعمل رئيس تحرير بإحدى المجلاّت الفرنسيّة اسمه جاك سوف أحادثه في موضوعك.. ولِمَ لا تصير صحفيّا في مجلّته؟..
- هذا حلّ مناسب جدّا..
- إذنْ عُدْ الآن إلى الوكالة وعندما أنظّم كلّ شيء سوف أُبلغكَ.. ولا تنسَ أن تجهّز جواز سفركَ..

- شكرا لكَ يا محمود.. لولاكَ ما أدري ماذا سيكون مصيري..
- لا تنسَ يا صالح نحن أصدقاء والصّديق وقت الضّيق..»

يا إلهي ما أروع أن يجد الإنسان صديقا يفرج كربته ويسانده في محنه.. ما أحلى المشاعر الشّفّافة الخالية من الحقد والبغض.. مشاعر محمود النّقيّة.. وهذا هو الشّيء الّذي أفتقده.. النّقاء! يا ليتني كنتُ مثله..

* * *

وبعد أسبوع من لقائي بمحمود.. ناداني العمّ عثمان بينما كنتُ جالسا في غرفتي أكتب مقالا للجريدة الّتي أشتغل بها.. وقال لي:

« - ضيف بانتظارك يا ولدي..
- ضيف؟ لا بدّ أنّه محمود.. أدخله يا عمّ..»

وما هي إلاّ هنيهة حتّى أطلّ رأسه من فتحة الباب وقال:

« - ها قد جئتُ ومعي أخبار مهمّة كما وعدتُكَ..
- لقد تأخّرتَ يا محمود.. انتظرتك طويلا..
- على كلّ حال.. لم يذهب انتظارك سدى.. غرّة فيفري 1956 سيكون يوما مشهودا بالنّسبة لكَ..
- بعد ثلاثة أيّام سأسافر إلى فرنسا؟
- أجل.. وستجد هناك جاك في استقبالكَ.. ستسكن معه حتّى ترتّب أمورك في باريس.. إنّه يعيش مع ابنه منذ وفاة زوجته في الحرب.. من أكثر من عشر سنوات خلتْ..»

ارتميتُ في أحضانه وأنا أشكره فرحًا.. لكنْ لِمَ أنا فرح؟ لأنّني سأجد سُكَيْنة الّتي أحلم بها هناك.. سأجد سُكَيْنة المتحرّرة القادرة على فعل كلّ ما تريد دون ضغوط.. دون حواجز.. دون استعمار!

« - هاي.. صالح..
- نعم.. آه.. أنا آسف..
- أين كنتَ؟
- أنا أمامك..
- لا.. كنتَ تحلم..

- أجل.. أحلم بفرنسا..
- بعد ثلاثة أيّام.. يتحقّق حلمكَ بإذن الله.. ويصير حقيقة..
- كلّ هذا بفضل الله وبفضلك يا محمود..
- لا تقلْ هذا.. نحن أصدقاء يا صالح..
- أتعلمُ يا محمود؟.. أنتَ الّذي علّمتني معنى الصّداقة بكلّ ما فعلته من أجلي..
- كُفَّ يا صالح عن هذا المدح.. أنا لم أفعل شيئا يستحقّ هذا الشّكر.. ما فعلتُه كان واجبي.. وإلاّ من كان سيقوم بمساعدتكَ غير صديقكَ؟..
- شكرا لكَ يا محمود..
- هيّا.. استعدَّ.. غدا نذهب لاستلام جواز السّفر ولاقتناء التّذاكر.. إلى اللّقاء..»

* * *

وجاء اليوم الّذي لطالما انتظرته.. وصعدتُ الباخرة.. ووقفتُ أودّع من بعيد صديقي محمود وألوّح له بيدي.. ثمّ انطلقت الباخرة نحو باريس..

III

ووصلتُ.. ووجدتُ جاك في انتظاري.. كان رجلا في الخمسين من عمره.. شعره أسود غلب عليه البياض.. متوسّط القامة.. فرنسيّ الأصل.. عربيّ الملامح.. رحّب بي بحفاوة وحملني في سيّارته حتّى وصلنا إلى البيت.. كان البيت جميلا وواسعا أجمل من بيوت قريتنا ومن وكالات المدينة والعاصمة.. كان البيت ذا طابع أجنبيّ مختلف تماما عن أيّ بيت دخلته من قبل..

ربّت جاك على كتفي وقال لي بلغة عربيّة فصيحة:

« - تفضّل.. اعتبر البيت بيتك منذ اليوم..

- ...!

- لا تندهش.. أنا أجيد العربيّة.. زوجتي باسكال لبنانيّة الأصل.. علّمتني إيّاها بكلّ قواعدها.. كانت تحبّني كثيرا رحمها الله.. أحبّتني لأنّها وجدت فيّ الرّجل المسالم المدافع عن حقوق الإنسان كما كانت تقول.. لكنّني رغم كلّ ما فعلت لا أُتقن لغتكم كما تتقن أنتَ الفرنسيّة يا عزيزي.. دعنا الآن من هذا الحديث وهيّا بنا لنتناول طعام الغداء..»

* * *

صديقي العزيز محمود،

تحيّة وسلاما

أمّا بعد، فها أنا ذا أخطّ أوّل رسالة في حياتي وها أنتَ تحظى بشرف تلقّيها.. وأنتَ جدير حقّا بهذا الشّرف..

لولاكَ يا محمود ما كنتُ لأعيش هذا النّعيم.. مرّ شهر على استلامي وظيفة صحفيّ بجريدة جاك الرّجل الشّهم.. حقّا.. جاك رجل لم أصادف مثله في حياتي، ابنه فرانسوا كذلك رائع.. لقد صرتُ بمثابة فرد من عائلتهما الصّغيرة.. صار فرانسوا أخي وصار جاك أبي! لم أكن أعتقد أنّ هذا الفرنسيّ سيكون بمثل هذا الحنان وهذه الرّقّة والمودّة.. لقد انمحت من مخيّلتي صورة الفرنسيّ المتجبّر المتسلّط المستعمِر

وارتسمت مكانها صورة الفرنسيّ الإنسان الرّؤوف الرّحيم الرّافض للعنف والاستبداد.. ربّما يُغيضك هذا الكلام يا عزيزي لكن هذا هو شعوري ولا يمكن أن أخفيه.. جاك بالنّسبة لي حالة نَدَرَ وجودها.. وكلّ ما أملكُ قوله لكَ هو أنّكَ حقّا أوصلتني إلى برّ الأمان وأدنيتني من حلمي الّذي عشتُ من أجل تحقيقه..

والسّلام

صديقتكَ صالح

* * *

ومضى أسبوعان وأتت برقيّة من محمود «مبروك! استقلال البلاد» أجل لقد استقلّت بلادنا ونجت من براثن الاستعمار أخيرا لكنْ ماذا عن سُكيْنة؟ هل استقلّت هي الأخرى بذاتها؟ هذه هي مُعضِلتي! هذا هو الكابوس الّذي ظلّ يطاردني طوال ثماني سنوات! الكابوس الّذي ما أفقتُ منهُ إلى الآن.. كيف سأنتقم لها؟ كيف سأثأر لأختي؟ عليكَ أوّلا يا صالح أن تحاول تحليل شخصيّة المرأة الغربيّة الّتي تراها تسير في أزقّة وأنهج باريس وتستخلص منها ما يطابق الشّريعة والدّين و تدافع عنها وتحارب من أجلها بكلّ قواكَ.. لن أستطيع العودة إلى وطني حتّى أحقّق ما أصبو إليه يا سُكيْنة!

وها أنا ذا بدأت أحلّل.. العينان الزّرقاوان والأنف الدّقيق والقامة الطّويلة والشّعر الأشقر والملابس الأنيقة.. كلّ هذه الأوصاف لا تهمّني.. أنا أحبّ الفتاة العربيّة وأحبّ الجمال العربيّ الأصيل، العينان السّوداوان والأنف الجميل والقامة المتوسّطة والشّعر الأسود المنسدل على كتفين في شكل ضفيرتَيْنِ والمنديل المزركش فوق الرّأس والفستان العاديّ المحتشم السّاتر الرّكبتين واليدين.. هذا أروع جمال رأيتُه لكنْ بدون نقاب يستر وجهكِ الجميل ولا لحاف يغطّي يديكِ ورجليكِ ورأسكِ.. ولهذا الجمال أن يسير في الشّارع دون رقيب ولا وشاية ولا ضرب ولا حزن ولا موت.. لا يا سُكيْنة.. ما كان عليكِ أن تموتي..

كان عليكِ أن تنتظري حتّى أنقذكِ من براثن ذلك الوحش.. من براثن الاستعمار!!

* * *

ها أنتَ ذا يا صالح تخطّط لتنفيذ طموحكَ وتعمل ليلا نهارا وتسعى جاهدا لاستعادة حقّ سُكيْنة الّذي تركتَه هناك في القرية.. ظللتُ أسكنُ في بيتِ جاك وأعمل صباحا في الجريدة وأذهب مساء إلى المكتبة العموميّة أتصفّح الكتب وأقلب صفحات الموسوعات وأبحث وأدرس حتّى أتى ذلك اليوم الّذي ما انتظرته ولا سعيتُ لأجده ولا بحثتُ عنهُ.. ذلك اليوم الّذي التقيتُ فيه سُكيْنة..

كنتُ جالسا و بيدي كتاب أقرأه.. وَقَفَتْ بجانبي وقالت لي بلغة فرنسيّة رائعة:

« - هل يمكنني الجلوس؟

- طبعا..

- أعذرني لم أجد مقعدا شاغرا..

- لا بأس تفضّلي.. »

جَلَسَتْ بجواري.. كانت تمسك كتابا في الطّبّ.. أخذَتْ تتصفّح.. تقرأ.. تسطّر.. كانت حقّا مهتمّة بذلك الكتاب ولم تنتبه لكوني مهتمّا بها اهتمامها بذلك الكتاب.. أتصفّح ملامح وجهها.. أقرأُ ما كُتِبَ في عينيها.. وجدتُ ملامحا عربيّة خالصة.. عينان سوداوان.. شعر أسود منسدل على الكتفين.. وفستان طويل أخضر بلون أوراق الشّجر.. إنّه الرّبيع.. إنّها حقّا سُكيْنة!!

كدتُ أسألها عن اسمها وأصلها لولا أنّ صديقتها سبقتني في الحديث.. وَقَفَتْ.. صافحتني ثمّ قالت لها بلغة عربيّة:

« - هيّا يا رقيّة.. إنّها السّادسة مساء.. لقد تأخّر الوقتُ.. »

فأجابتها جليستي بنفس اللّهجة:

« - حسنا.. لحظة واحدة.. »

وَضَعَتْ النّظّارات في صندوق صغير.. أغْلَقَتِ الكتاب.. أعادته إلى مكانه من الرّفّ.. أَخَذَت حقيبتها.. ثمّ نَظَرَتْ إليّ وقالت بلغة فرنسيّة:

« - تصبح على خير.. وشكرا.. »

لم تنتظرني حتّى أردّ عليها التّحيّة.. اختفت وتركتني مذهولا.. لا أدري ما أقول.. اختفت وكأنّها الضّباب في الشّتاء أو السّراب في الصّيف.. ابتعدت رويدا رويدا وتركتني وفي مخيّلتي طيف لطيف.. شبح جميل.. ملاك بثوب أبيض.. عَبَرَتْ صفوف الطّلبة والتّلاميذ وخَرَجَتْ من الباب أو قُلْ تسلّلتْ خفية واغتنمتْ فرصة غفلتي وشرودي وانبهاري أو هكذا أحسستُ حين صار المكان الّذي بجواري فشاغرا.. منذ برهة فقط.. هُنَيْهة قصيرة كان المقعد مؤنسا.. عامرا.. ربيعا مُزهِرا ورودا ورياحينَ.. والآن صار موحشا.. كغرفتكِ يا سُكَيْنة وكَبيتِنا في القرية.. مرعبا.. خاليا.. مُخيفا كصحراء قاحلة تمتدّ فيها الكثبان الرّمليّة حتّى الأفق وأنا أسير فيها بحثا عن سراب!

من هي هذه الفتاة يا ترى؟ هل هي عربيّة أصيلة؟ أم أنّها فرنسيّة عاشت في بلاد عربيّة؟ لكنّ لهجتها في الحديث تبدو كلهجتي.. هل هي تونسيّة مثلي؟ لشدّ ما أوسع خيالكَ يا صالح! لقد صرتَ ترى النّموذج الّذي صنعتَه لنفسكَ في كلّ مكان وفي وجه كلّ فتاة.. ترى هل سأراها مرّة أخرى؟

* * *

وأدمنتُ الذّهاب إلى تلك المكتبة في تلك السّاعة والجلوس على ذات المقعد.. صرتُ أذهب لانتظارها لا للدّراسة أو البحث.. أنتظرُها.. وأنتظرُها حتّى تصير السّاعة السّادسة مساء.. ثمّ أحمل حقيبتي وأغادر المكان مهموما.. حزينا..

كنتُ أجلس في ذلك المكان وأظلّ أراقب المقعد الّذي جَلَسَتْ فيه تلك الفتاة وكأنّني أتجوّل وسط الصّحراء في عزّ الظهيرة.. تحرقني رمالها.. تلفحني حرارتها وأنا أتصبّب عرقا.. أسير وأسير والكثبان لا تزال.. والحرّ يشتدّ وأنا لا أملّ السّير.. والسّراب يبتعد أكثر فأكثر.. أجلسُ وأجلسُ ثمّ أنصرفُ لا ألوي على شيء وكلّ يوم يزداد يأسي ويضعُفُ أملي في العثور عليها.. كلّ يوم يمرّ يتلاشى معه إصراري في البحث عنها.. حتّى وجدتُها.. كما يجد الغطّاس اللّؤلؤة داخل الصّدفة

في عمق البحر.. كان ذلك يوم خميس.. دخلتُ المكتبة كعادتي فوجدتُها.. فستان أزرق فاتح يخفي رجليها حتّى الرّكبتين.. جالسة في ذلك المكان الّذي جَلَسَتْ فيه في المرّة الأولى.. تَقَدّمتُ ووقفتُ حذوها..

« - هل تسمحين لي بالجلوس؟..

- طب.. عذرا.. هل أنتَ عربيّ..

- هناك عدّة مقاعد فارغة لكنّني اخترتُ الجلوس هنا.. فهل تمانعين؟

- لا أبدا.. بالعكس.. تفضّل.. لكنّكَ لم تجبني عن سؤالي..

- أجل أنا عربيّ.. من تونس..

- عفوا.. ألستَ أنتَ من..؟

- نعم.. أنا من جلستِ إلى جانبه منذ نصف شهر مضى.. هنا على نفس المقعد.. وكنتِ تمسكين بيدكِ كتابا في الطّبّ.. أليس كذلك؟

- تبدو نبيها ودقيق الملاحظة وإلاّ لما عرفتَ أنّني عربيّة أنا الأخرى من مجرّد جلسة قصيرة مرّ عليها وقت طويل..

- أجل.. لقد عرفتُ ذلك حين أتتْ صديقتكِ لاصطحابكِ من هنا.. عرفتُ كذلك أنّ اسمكِ رقيّة..

- هذا جيّد.. لكن ألم تلاحظ أنّني لم أتعرّف عليكَ بعد؟

- حسنا.. اسمي صالح وأشتغل صحفيّا بجريدة فرنسيّة..

- تعمل صحفيّا بجريدة فرنسيّة وأنت عربيّ؟ إذن أنتَ عبقريّ!

- شكرا.. لكن أنا لستُ كما تقولينَ.. بل هو الحرمان..

- الحرمان؟

- أنا آسف.. عليّ الذّهاب..

- أرى أنّكَ تريد الفرار..

- ولِمَ أفرّ؟

- لا أعلم.. لكنْ قُلْ لي عن أيّ حرمان تتحدّث؟

- هذه حكاية طويلة.. اعتبري نفسكِ ما سمعتِ شيئا.. الوداع..

- بل قُلْ إلى اللّقاء..»

غادرتُ المكتبة وأنا أحسّ بألم فظيع في رأسي.. لم ينتبني هذا الصّداع منذ مدّة طويلة.. ولكنْ هل هربتُ حقّا كما كانت تقول؟ أم أنّها واهمة؟ ربّما أحسّت أنّ وراء حديثي شيئا ما لم أُرِدْ البوح به.. أو ربّما.. لا أعرف.. لِمَ فررتُ.. لِمَ غادرتُ المكتبة هكذا؟.. لِمَ لم أحاول أن أستفيد من وجودي بقربها حتّى أعرف عنها أشياء كنتُ أحلم بمعرفتها؟.. لِمَ تركتُ هذه الفرصة تضيع منّي؟ كنتُ أبحث عنها طويلا ولمّا وجدتُها ألقيتُ بها مرّة أخرى وربّما ستضيع منّي ولن أجدها ثانية.. لِمَ يا إلهي؟ لكنْ انتظر قليلا يا صالح.. ماذا قالتْ لكَ في النّهاية؟ قالتْ: « قُلْ إلى اللّقاء » وهذا يعني أنّها تريد أن تلقاكَ مرّة أخرى.. ربّما.. لنترك القدر يقودنا..

* * *

وعُدتُ إلى بيت جاك وجلستُ على الفراش أبتلع المرارة بعد المرارة.. وأتجرّع كأس النّدم والأسف.. دقتّ السّاعة الثّامنة ليلا فقمتُ لتناول العشاء مع جاك وفرانسوا..

« - ما بِكَ يا صالح؟

- أَنا؟

- لم تأكل شيئا منذ جلوسنا على مائدة الطّعام.. هل أنتَ مريض؟

- لا.. أبدا.. إنّني آكل.. ألا ترى؟

- ما بيدكَ ترتعش ووجهكَ مصفرّ؟

- يبدو أنّ السّهر صار يتعبني.. أنا ذاهب إلى النّوم..

- لكنّك لم تتناول عشاءكَ..

- لقد شبعتُ.. تصبحان على خير.. »

بالكاد استطعتُ أن أقول هذه الكلمات لجاك وابنه.. هل أنا حقّا متعب.. مرهق؟ لكن مِمّ؟ ربّما أتعبتني رقيّة بأسئلتها الّتي لا زالت ترنّ في أذني.. أو انصرافي المفاجئ من المكتبة هذا التّصرّف الّذي لم أجد له تفسيرا مقنعا بعدُ! ليتني ما ذكرتُ تلك الكلمة"الحرمان"!!

وبينما أنا جالس هكذا أفكّر إذ بطرقة خفيفة على الباب ظهر إثرها وجه فرانسوا مطلاّ من الفتحة..

« - مررتُ صدفة بجانب غرفتكَ فوجدتها مضيئة.. ظننتكَ نسيتَ إطفاء النّور قبل أن تنام..

- وأين هو هذا النّور الّذي تراه؟.. إنّي أرى ظلاما منذ ثماني سنوات.. منذ وفاتها..

- عمّ تتحدّث؟

- لا.. لا شيء يا عزيزي..

- اسمع يا صالح.. لقد تغيّر سلوككَ منذ مدّة.. هل حدث لكَ مكروه لا سمح الله؟

- مكروه مثل ماذا؟

- لقد صرتَ لا تأكل.. لا تنام.. صار وجهكَ شاحبا وبدنكَ هزيلا.. هل تشكو مشكلة؟

- لا.. أبدا..

- لقد أردتُ فقط مساعدتكَ.. على العموم أنا موجود لو احتجتَ معونتي.. سأتركَ الآن لتنال نصيبا من الرّاحة لا بدّ أنّك مُتْعَب.. تصبح على خير..

- فرانسوا..

- نعم..

- أريد أن أشكركَ على كلّ ما تفعله من أجلي.. أنتَ حقّا أخ وفيّ ورائع..

- لا شكر على واجب يا.. يا أخي.. »

قال هذه الكلمات وارتمى في أحضاني وأخذنا نبكي بحرارة وكأنّنا لم نحسّ أبدا بالحنان إلاّ حين وجد كِلانا الآخر.. احتَضَنَنِي وأخذ يبكي فكانت دموعه أمطارا هطلتْ في الصّحراء الّتي تهتُ فيها.. نزلتِ الأمطار فتفجّرت في الكثبان جداول وأنهار وانخفضت حرارة الطّقس وأحسستُ ببرودة..أحسستُ أنّ النّار الّتي كانت تشتعل في صدري قد خمد لهيبها وانطفأت وصارت رمادا.. نظرتُ إليه وقلتُ له:

« - لقد تبيّن لي جليّا الآن أنّكَ أنتَ الآخر تعاني مشكلة عويصة!

- أجل يا عزيزي.. لكنّني لا أريد أن أشغلكَ بمعاناتي.. يكفيك ما أنتَ فيه.. سأتركك لتنام..

- تعال إلى هنا.. إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى غرفتي..

- لن أسمح لكَ بالذّهاب قبل أن تسرد عليّ حكايتكَ..

- لا بدّ أنّكَ مُتْعَبٌ وفي حاجة إلى الرّاحة..

- أبدا.. على العكس.. إن لم تقلْ لي ما بكَ.. سوف لن أنام طول اللّيل.. ثمّ إنّ الوقت مازال مبكّرا.. هيّا.. اجلس بجانبي هنا على الفراش.. عيناكَ مليئتان بحزن كبير..

- أجل يا صالح..»

* * *

عمر الحكاية أكثر من خمسة عشرة سنة.. أمّي باسكال.. كنتُ أحبّها كثيرا.. كانت عربيّة الأصل.. لبنانيّة.. رائعة.. شعرها أشقر طويل منسدل.. وجهها مستدير.. عيناها بلون العسل.. أنفها دقيق.. قامتها طويلة.. وذلك الفستان الأسود والأبيض القصير الّذي جلبه لها والدي في عيد ميلادها.. كانت تحبّ كثيرا ارتداءه.. كانت أمّي رغم أنّها لم تنجبني.. أجل أنا لستُ ابن باسكال.. أنا ابن جانيت.. فرنسيّة.. طلّقها والدي بعدما أنجبتني بسنتيْن.. كان ينوي أن يطلّقها قبل ذلك لكنّه انتظر حتّى كبرتُ قليلا.. كان والدي يقول عنها كثيرا أنّها كانت لئيمة.. شرّيرة.. أنانيّة.. ورغم ذلك كانت تحبّني وعندما أراد أبي الانفصال عنها تركتني معه لأنّها لم تكنْ تريدني أن أعيش مع زوج أمّ.. هذا ما قاله والدي عنها.. تركتني معه ولم تسأل عنّي مرّة أخرى.. لم تكنْ تريد أن تقتحم حياتي وتُفسدَ عيشي الهنيء مع والدي جاك وزوجته الرّائعة باسكال.. هذه المرأة الّتي ربّتني مذ كنتُ ابن سنتيْن إلى أن أدركتُ التّاسعة.. كانت تهتمّ بشؤوني وترعاني ولم يُخيّل لي في يوم من الأيّام أنّها من الممكن أن تكون شخصا آخر غير والدتي.. لم ينتبني شكّ ولا

داخلني ريب في ذلك.. حتّى سمعتها يوم تتحدّث مع والدي.. في غرفة النّوم..

« - إنّكِ تدلّلينه كثيرا..

- ولِمَ لا أدلّله.. أليس ابني؟

- أجل.. كلّ من يرى تصرّفاتكِ معه يخالكِ أمّه.. لقد عوّضتِه كثيرا عن الّتي رحلت وتركتْه..

- لا تقلْ هذا يا جاك.. لا تنسَ أنّها كذلك أمّه.. وأنا ما فعلتُ هذا إلاّ لأنّني أحبّكَ ولأنّ الله حرمني نعمة الإنجاب..

- لا يا باسكال أنتِ إنسانة رائعة..

- ربّما كانت جانيت كذلك.. لكن لا بدّ أنّ هناك ركنا مظلما في حياتها جعلها تصير هكذا..»

سمعتُ ما دار بينهما وعمري آنذاك عشر سنوات.. ارتسم ذلك الحوار في مخيّلتي.. وعندما أصبحنا كان يوما ليس ككلّ الأيّام.. ذهب أبي إلى الجريدة وتركني معها.. ذهبتُ إليها.. كانت آنذاك في المطبخ تُعدّ طعام الغداء..

« - أ صحيح أنّكِ لستِ أمّي؟

- بلى يا عزيزي أنا أمّكَ..

- لا..أنتِ تكذبين..أمّي اسمها جانيت وأنتِ اسمكِ باسكال..»

اغرورقت عيناها بالدّموع واحتضنتني و قالتْ:

« - جاني أنجبتكَ لكنْ أنا من ربّيتكَ لذلك فكِلانا أمّاك..

- لا.. أنتِ أمّي.. أنا لا أحبّ جانيت.. أنا أحبّكِ أنتِ.. أنتِ أمّي.. أنتِ أمّي..

- لا يا بُنيّ.. لا تقلْ هذا.. جانيت أيضا لها عليكَ حقّ.. أنتَ لازلتَ صغيرا.. عندما تكبر ستفهم كلّ شيء..

- أنا خائف يا أمّاه.. ستأتي تلك الشّرّيرة وتخطفني..

- لا يا عزيزي لا تخفْ.. إنّني معكَ والله معنا.. »

كانت تقول هذا الكلام وفي قلبها حزن كبير.. كانت تتمنّى لو كانت هي أمّي الحقيقيّة.. لكنّ القدر حال دون ذلك ورغم ذلك فقد كانت راضية بنصيبها.. احتضنتني بكلّ قوّتها.. لم تكنْ تريد أن تفقدني..

وفي ذلك الوقت، رنّ الجرس.. وطُرِقَ الباب طرقا عنيفا.. التصقت بأمّي.. وتَشَبّثَتْ هي بي.. كانت خائفة علَيّ أكثر من خوفها على نفسها.. ازداد الطّرق.. وتحوّلَ إلى ضرب عنيف.. ثمّ إلى كسرٍ.. كُسِرَ الباب.. وظهرتْ جماعة من الجيش الفرنسيّ:

« - أين هو؟

- عمّن تتحدّث؟

- هل أنتِ زوجته؟

- أجل..

- أنتِ إذن اللّبنانيّة باسكال شريف؟

- نعم.. لكن كيف تدخلون هكذا دون..

- هذا ليس من شأنكِ.. »

دخلوا البيت.. كنتُ متشبّثا بأمّي.. لكنّها تركتني وركضت وراءهم إلى غرفة المكتب.. كانوا يعبثون بأوراق أبي.. مقالاته الّتي كان يكتبها ضدّهم.. كانت أمّي تعلم علم اليقين أنّه يخشى على تلك الأوراق أكثر من خشيته على بصره.. ركضَتْ وراءهم فوجدتهم يجمعون تلك الوثائق.. الوثيقة تلو الأخرى..

« - ماذا ستفعلون بتلك الأوراق؟ قالت صارخة..

- سنمزّق البعض ونحرق البعض الآخر وربّما سنعرضها على المسؤولين.. قال في سخرية..

- يا لكمْ من وحوش.. تتكلّمون عن الحرّيّة؟ أين هي..؟ ماذا تريدون منّا..؟

- لا نُريدُ شيئا يا حُلوة.. » قال هذا وهو يضحك ويربّتُ بكفّه البغيض على خدّها..

اشتعلتْ دماء العروبة في عروقها.. دفعتْ يده بعصبيّة « أنتَ سافل وحقير » لطمتهُ على خدّه وبصقت في وجهه.. فجذب المسدّس وضغط على الزّناد.. فاتّجهت الرّصاصة صوب قلبها.. وتركها تسبح في بركة

من الدّماء ورحل مع جماعته.. تركها بين أحضاني.. والدّماء تخرج من أنفها وفمها.. « لا تخش شيئا يا فرانسوا.. أنا سأموت شهيدة حبّي لأبيكَ وإخلاصي له.. لا تخفْ.. والدكَ يحبّك كثيرا.. لكن أرجو أن لا تنسى باسكال الّتي ربّتكَ وعطفتْ عليكَ وكانت أمّا متفانية في رعايتكَ.. أنا أحبّكَ كثيرا يا بنيّ.. » قالت هذا واقتربتْ منّي وطبعتْ قبلة على خدّي.. وفاضت روحها.. ظللتُ آنذاك أبكي وأقول:« لا تتركيني يا أُمّاه.. لا تموتي يا أُمّاه.. أنا أحبّكِ يا أُمّاه.. »

ومنذ ذلك اليوم صرتُ يتيما.. ظللتُ أسبوعا بحاله أبكي فراقها نهارا وتطاردني الكوابيس ليلا.. لا أستطيع النّوم ولا الأكل ولا الشّراب.. هزُلَ جسدي وشَحُب وجهي.. كانت الحقيقة أنّ جانيت كانت السّبب في كلّ ما حصل لي.. كانت تسعى لتدمّر أبي لكنّها لم تكن تُدركُ أنّها دمّرتني أنا.. كانت تسعى لتحرمه من السّعادة ولم تكن تعلم أنّ مصيري مرتبط بمصيره.. لم تكن تعلم أنّ سعادتي في سعادته.. هي الّتي اتّصلت بالفرنسيّين وأعلَمَتْهم بوجود الوثائق عنده.. هي من دلّتهم على عنوان البيت وعلى اسم زوجته الّتي اعتنتْ بابنها ولم تهمله.. أ هكذا يكون جزاء الإحسان؟ ألهذه الدّرجة يعمي الحقد والغلّ عين الإنسان؟ لم أكن أتصوّر أنّ أمّي الّتي حملتني تسعة أشهر يمكن أن تكون بتلك البشاعة.. حرمتني من أعزّ ما أملكُ..حرمتني من أمّي.. من الحنان والعطف.. وحرمتني من أبي الّذي قضى سنتيْن في السّجن.. عِشْتُهما بعيدا عنه.. رحلتُ إلى ليون وسكنتُ مع عمّتي إليزابيت.. لكنّ جانيت ورغم كلّ ما فعلته بي.. لم تخجل من نفسها.. أتتْ لتأخذني من بيت عمّتي.. دخلتْ يوم إذِ تغطّي وجهها صناديق الهدايا.. وحين وضعتها على الطّاولة.. تبيّنتُ ملامحها.. ملامح الوحش الّذي خطف منّي السّعادة وأتى ليخطف منّي حياتي.. شعر أشقر طويل انسدلت منه شُعيْرات سوداء.. عينان بُنّيّتان تلمعان خبثا وشراسة.. زادهما الكحل الّذي تضعه حدّة وشرًّا.. علاهما لون أزرق فاتح يمتدّ حتّى حاجبيها الرّقيقين.. أنف دقيق.. وفم صغير وشفتان سميكتان مصبوغتان باللّون الأحمر وثغر تفترّ ابتسامة كلّها خداع وغشّ.. وفستان قصير أصفر فاقع.. وحذاء أسود لامع.. وحقيبة صغيرة سوداء.. ويدان نحيفتان..

خاطبتني آنذاك عمّتي بصوت منخفض..

« فرانسوا.. اقترب من أمّكَ.. سلّم عليها..»

مدّت لي جانيت يدها.. فقلتُ لها: « اتركيني وشأني أنا لا أحبّك.. أنتِ من قَتَلَ أمّي.. أنتِ شرّيرة.. أنا أخافكِ.. ابتعدي عنّي.. لا تلمِسيني.. أنا لستُ ابنكِ.. أنا ابن باسكال.. أتفهمين؟ ابن باسكال.. هيّا ارحلي.. ارحلي..» وما إن نطقتُ بتلك الكلمات حتّى انحدرت الدّموع على خدّيها.. وأخذت حقيبتها وانصرفت دون أن تنبس ببنت شفة تاركة الهدايا والألعاب الّتي جلبتها على الطّاولة.. فتوجّهتُ نحو تلك الألعاب وركضتُ خلف جانيت.. وعند السّلّم رميتُ تلك الألعاب أمامها قائلا : «لا أريد منكِ شيئا.. هاكِ هداياكِ الّتي جلبتِها.. لا حاجة لي بها.. باسكال تركت لي هديّة أثمنَ.. إنّها الحبّ!..»

وهكذا نشأتُ طفلا فرنسيّ الأصل.. عربيّ الطّباع.. ودرستُ في جامعة السّوربون اللّغة العربيّة.. أحببتُ أن أتعلّم لغة أمّي باسكال.. أمّي الّتي ضحّت بكلّ شيء من أجلي..

* * *

كان فرانسوا في حالة يرثى لها من الحزن.. حينما أتمّ سرد حكايته.. أخذتُهُ في حضني وكفكفتُ دموعه وقلتُ لهُ :

« - ما الّذي ذكّركَ بكلّ هذه الآلام الّتي مرّ عليها أكثر من عشر سنوات؟

- اتّصلتْ بي جانيت بالأمس وأخبرتني أنّها تُحْتضرُ.. وأنّها تريد رؤيتي.. وأنا لا أعرف حتّى الآن كيف سأتصرّف.. أتعرف يا صالح؟ أنا أحقد عليها لأنّني أعتبرها السّبب في كلّ ما حدث لي.. لا أستطيع أن أنظر في وجهها.. أحسّ أنّني سأكون قاسيا معها..

- وهل عَلِمَ أبوكَ بهذا الاتّصال؟

- لم أُرِدْ أن أقول له.. يكفيه ما يعانيه من مشاكل في عمله ويكفيه ما قاساه من جانيت.. لا أريده أن يشغل تفكيره بمثل هذه التّفاهات..

- حسنا فعلتَ.. لكن أقترح عليكَ أن تذهب فهي مهما يكن أمّكَ أحببتَ أم كرهتَ.. وهي وإن كانت شرّيرة كما تعتقد فلا بدّ أنّ في قلبها ركنا صغيرا ينيره وجودكَ في هذه الدّنيا.. وربّما كنتَ أنتَ عزاءها الوحيد في حياتها.. لا تحرمها من فرصة رؤيتكَ وإن قستْ هي عليكَ فلا بدّ أنّها نادمة على ما اقترفتْ في حقّكَ.. ولا تنس ما عَلّمْتُهُ لكَ باسكال.. لا تنسَ الحبّ..!

- معكَ حقّ يا صالح.. معكَ كلّ الحقّ.. سأذهب غدا لرؤيتها.. تصبح على خير..

- تصبح على خير يا فرانسوا..»

وأغلق فرانسوا الباب وتركني أصارع الهواجس والآلام وعذاب الضّمير.. كان يجب عليَّ أن أنصحه.. أن أجعله يذهب إلى أمّه.. لم أكنْ أريده أن يقع في ذات الخطأ الّذي وقعتُ فيه أنا.. أنا الّذي لم أحضر حتّى جنازة والدي.. لم أكن أريد أن يولد في العالم صالح آخر مثلي.. صالح.. ومن أين جاء صلاحي؟ كان على والدي أن يسمّيني الفاسد!.. أنا الّذي دفعتُ بأختي إلى التّهلكة.. أنا الّذي سافرتُ وتركتُ والدي يعاني المرض ولم أسأل عنه وأنا الّذي ما منحتُه فرصة رؤيتي قبل موته.. لو علِمَ فرانسوا بحكايتي لرفض الجلوس معي أو محادثتي..

أُتركْ عنكَ يا صالح كلَّ هذه الهواجس وفكِّر في مشكلتك أنتَ.. فكِّرْ في رقيّة الّتي رحلْتَ دون أن تعرف حقيقتها..

ومضى أسبوع لم أحاول فيه الذّهاب إلى المكتبة إلاّ مرّة أو اثنتيْن.. لا أعرف إن كنتُ خائفا من مواجهة رقيّة ثانية بعد ذلك اللّقاء القصير.. أم أنّني لم أُعِرْ أمرها اهتماما.. المهمّ أنّ بعد مضيّ هذا الأسبوع دخلتُ المكتبة.. فوجدتُها في انتظاري.. ابْتَسَمَتْ وقالتْ:

« - كنتُ واثقة من عودتكَ..

- عجبا! وفيم كلّ هذه الثّقة؟

- أتعلم؟ لم أكنْ أعتقد أنّكَ ستعود بهذه السّرعة!

- سرعة؟ أسبوع كامل مضى وتقولين سرعة؟

- أجل.. يغيب القاتل عادة كثيرا حتّى يعود إلى مكان الجريمة..

- جريمة؟
- إنّني أمازحكَ فقط.. ما بكَ واقف؟ اجلس!
- ما بالكِ اليوم.. كأنّكِ لستِ في حالتكِ الطّبيعيّة..
- هيّا كُفّ عن هذا الهراء وأتم لي الحديث الّذي بدأناه في المرّة الفارطة.. إنّني في شوق لمعرفة قصّتكَ..
- حديث؟ شوق؟ قصّة؟ عمّ تتحدّثين؟
- لا تحاول الهرب مرّة أخرى..
- إنّكِ تتكلّمين معي وكأنّني أعرفكِ منذ فترة طويلة.. بل وكأنّنا أصدقاء أو أقارب أو شيء من هذا القبيل..
- فعلا.. أنا أحسّ أنّني أعرِفُكَ منذ أمد بعيد..
- لا.. أنتِ تهذين اليوم.. اذهبي إلى الطّبيب.. سأغادر..
- اجلسْ.. قلتُ لكَ اجلسْ..
- ...
- اجلسْ! ألا تسمع؟
- أنا لا أفهم سبب إصرارِكِ على معرفة قصّتي.. هل أمُتُّ لكِ بأيّة صلة؟
- لقد قلتُ لكَ أنّ في عينيكِ حزنا عميقا يدلّ على مأساة.. وكلامكَ يؤكّد هذا.. ونبرة صوتكَ فلِمَ لا تريد أن تبوح بمشاكلك؟..
- بصراحة.. أنا لا أريد أن أسرد حكايتي أو أثق في شخص لم أتعرّف عليه إلاّ من خلال لقاء عابر في قاعة المكتبة.. أنا آسف..
- حسنا إذن.. لا تتأسّف.. أنا الّتي عليها أن تعتذر.. لقد أضعتُ لكَ وقتكَ.. وداعا.. »

كنتُ أريد أن أوقفها.. كان عليَّ أن أستوقفها.. لم يكن عليّ أن أتركها تذهب هكذا.. وتقول « وداعا ».. هل تقصد أنّنا لن نلتقي مرّة أخرى؟ « ولِمَ تلتقيان يا صالح مادمتَ فعلتَ كلّ ما في وسعكَ حتّى تقطع الحبل الّذي ربطكما؟ » أجل.. أنا الّذي سعيتُ لتدمير علاقتنا.. لقتلها قبل حتّى أن تولد.. « لقد حاولتْ هي أن تتقرّب منكَ لكنّكَ كنتَ كالسّراب الّذي

كلّما اقترب منه العطشان زاد ابتعادا » أنا كذلك كان عندي نفس الإحساس.. كنتُ أحسّ أنّها قريبة منّي كثيرا.. أنّها على صلة وطيدة بي.. لا أعرف سبب هذا الشّعور.. لكنّ محاولتها في التّعرّف عليَّ تؤيّد ظنوني.. « كفاكَ يا صالح أحلاما وأوهاما.. كفاكَ تبني قصورا على الشّاطئ تندثر بمدّ البحر وجزره.. عِشْ على الأرض ولا تكنْ كالطّير الّذي يحلم بالنّوم فوق السّحاب.. سوف يأتي يوم وتقع يا صالح.. وآنذاك لن تجد نفسكَ في الواقع ولا في الأحلام..»

* * *

خرجتُ من المكتبة يدفعني اليأس وتسيّرني الأحزان.. كانت السّاعة السّادسة مساء كالعادة.. تلبّدت السّحب في السّماء.. خيّم اللّيل سريعا على غير العادة.. وما هي إلاّ هنيهة حتّى تهاطلت الأمطار غزيرة.. لم أكن أملك مطريّة.. رفعتُ ياقة معطفي الجلديّ الأسود.. وضعتُ يديّ في جيوبي وسرتُ في الشّارع بخطى وئيدة وقطرات المطر تبلّل شعري ووجهي.. سرتُ لا أدري مقصدي.. ولا متى يكفّ المطر عن الهطول.. لم يكنْ يهمّني سوى أن أسير وأن أفكّر في مخرج لحيرتي ومتاهتي الّتي لا بداية لها ولا نهاية.. وفجأة سمعتُ صوت أزيز سيّارة قريب منّي.. كانت السّيّارة سوداء فخمة.. إنّها سيّارة فرانسوا.. اقتربتُ قليلا فوجدتُهُ قد فتح الباب وقال لي :

« - هيّا اصعد.. ألا تنوي العودة إلى البيت؟

- بلى..

- إذنْ هيّا.. سنجد أبي في انتظارنا.. هيّا أسرع.. »

ركبتُ وأغلقتُ الباب وفتحتُ معطفي قليلا..

« - لِمَ لم تنتظر في المكتبة حتّى يكفّ هطول المطر؟

- لمْ أستطع..

- لِمَ؟

- لا أعرف..

- بلى.. هل ضايقتكَ بأسئلتها؟

- عمّن تتحدّث أنت الآخر؟

- عن رقيّة..
- هل ستجنّني؟.. تريدون اللّعب أليس كذلك؟ ماذا تقصدون من وراء هذه الألغاز؟.. ماذا تريدون منّي؟ أوقِفْ السّيّارة.. قلتُ لكَ أوقِفْ السّيّارة..
- حسنا انتظر قليلا.. لم يعد البيت بعيدا.. »

ونزلنا من السّيّارة وتوجّهتُ مباشرة إلى غرفتي.. وأخذني نوم عميق لم أُفِقْ منه إلاّ صباحا.. أفقتُ على صوت فرانسوا..

« - هيّا يا صالح.. استيقظ لقد نمتَ كثيرا..
- ماذا؟ منْ؟ فرانسوا؟ كمِ السّاعة؟ لقد تأخّرتُ عن الجريدة..
- عن أيّة جريدة تتحدّث؟ إنّ اليوم أحد.. إنّه يوم عطلة..
- ماذا تريد منّي؟ أنا لا أريد رؤيتكَ مرّة أخرى..
- معكَ حقّ يا صالح.. لكنْ هيّا لنتناول فطور الصّباح وسأفسّر لكَ كلّ شيء.. وستعرف أنّني لم أكن أقصد من وراء كلّ هذا غير مصلحتكَ.. »

قمتُ معه وغسلتُ وجهي.. وذهبنا إلى غرفة الطّعام.. جلسنا وقدّم لي فنجان قهوة ساخنة..

« - تفضّل.. ستريح لك أعصابكَ وتدفئكَ قليلا..
- أنا لا أريد إلاّ أن أفهم ما يدور حولي..
- حسنا.. سأقول لكَ.. »

* * *

في السّنة الفارطة، دخلتُ كلّيّة الطّبّ.. أقصد بعد أن نجحتُ في السّوربون.. سمعتها تتحدّث العربيّة مع أختها.. تذكّرتُ باسكال.. رأيتُ فيها حنان أمّي الّتي افتقدتُها.. كانت عربيّة وتدرس الطّبّ في فرنسا.. حاولتُ التّقرّب منها حتّى صرنا أصدقاء.. كنتُ أتردّد كثيرا على المكتبة.. كنتُ ألتقي بها هناك وفي الكلّيّة أيضا.. صرنا أكثر من أصدقاء.. كانت لا تخفي عنّي شيئا.. ومن حسن الحظّ أنّها تعرّفتْ إليكَ مصادفة وهمّها أن تعرف سبب الحزن الّذي يلوح دائما في عينيكَ.. كلّ

الأمر كان صدفة.. ذهبتُ معها إلى المكتبة إثر خروجنا من الكلّيّة.. ورأيناكَ جالسا في مكانكَ المعتاد.. كنتَ مهموما.. متعبًا.. ولا يبدو عليكَ أنّكَ دخلتَ ذلك المكان للدّراسة أو البحث فقالت لي آنذاك مشيرة ببنانها..

« - ذاكَ هو الشّابّ الّذي جلستُ إلى جانبه المرّة الفارطة وحدّثتُكَ عنهُ..

- ماذا؟ إنّه صالح.. صديق حميم وأخ عزيز.. إنّه يعمل في الجريدة مع أبي.. إنّه حقّا شخص غامض ومحيّر.. أتعلمين؟.. منذ سكنَ معنا في البيت لم أعرف عنه شيئا سوى أنّه يتيم الأب والأمّ وأنّه إنسان طموح وله قدرة كبيرة على الكتابة باللّغتين العربيّة والفرنسيّة.. لكنْ معكِ حقّ.. إنّه في حالة يُرثى لها من الألم والحزن.. يبدو كأنّه يعاني مأساة لا حدّ لها..

- آه.. لقد فهمتُ إذن..

- ماذا فهمتِ؟

- لقد قال لي ذلك!

- قال لكِ؟ ماذا قال لكِ؟

- هو لم يقُلْ شيئا لكنّني استنتجتُ ذلك من عبارة واحدة زلّ بها لسانه..

- ...

- لقد قال لي.. « إنّه الحرمان! » و حينما سألته عمّا يقصد.. تعلّل بتأخّر الوقت.. ورحل دون أن أستطيع فهم شيء.. لكنّني الآن عرفتُ أنّه يعاني مشكلا كبيرا.. بل عقدة نفسيّة.. ويجبُ علينا مساعدته..

- وكيف ذلك؟

- أُتركِ الأمر عليَّ.. سأحاول استدراجه حتّى يتحدّث.. »

والبارحة إثر عودتنا إلى البيت اتّصلت بي وحكتْ لي عن الحوار الّذي دار بينكما مُدْرِكة أن لا جدوى من المحاولة معكَ وأنّ الأجدر بكَ

أن تعلم الحقيقة وأن تعتبرنا أصدقائكَ وتحكي لنا كلّ شيء بصراحة.. ألا يكفيكَ كلّ ما حصل حتّى تثق بنا؟

* * *

أدركتُ بعد كلّ ما قاله أنّه حقّا شخص جدير بالاحترام وأنّه حقّا أخ وفيّ ومخلص.. أنّه أراد مساعدتي وأنا الّذي قابلتُ جميله بالنّكران والجحود.. أنّه حقّا عربيّ.. عربيّ أكثر منّي.. فاحتضنتُهُ وأخذتُ أبكي وأقول :

« - سامحني يا فرانسوا.. سامحني يا فرانسوا.. لم أكن أعتقد أنّكَ شخص رائع إلى هذا الحدّ..

- لكلّ منّا يا عزيزي مشاكله الخاصّة.. لكنّ هذه المشاكل من الممكن أن تتطوّر ويصير واجبا عليكَ أن تشركَ فيها أحدا غيركَ تكون واثقا من صِدْقِه ومودّته وحبّه لكَ وقدرته على تحمّل المسؤوليّة معكَ.. أنا مثلا اخترتكَ أنتَ لتشاركني في مشكلتي مع جانيت.. فلِمَ لا تشركني أنتَ في مشاكلكَ ونصيرُ بالتّالي أصدقاء؟

- معكَ حقّ.. لكن لقد ضِقْتُ ذرعا بالجلوس في البيت.. لنخرج ونتناول فطور الصّباح في مكان هادئ..

- هيّا بنا يا عزيزي.. »

واتّجهنا صوب إحدى الحدائق العامّة الّتي عجّت بها باريس.. كان الطّقس جميلا.. السّماء مشرقة والشّمس بلون الذّهب.. لكنّ البرد كان شديدا.. جلسنا عند أوّل كرسيّ شاغر وجدناه فقلتُ لفرانسوا..

« - رقيّة فتاة رائعة حقّا.. منذ الوهلة الأولى الّتي رأيتُها فيها.. أدركتُ أنّها شخصيّة تستحقّ الاحترام والاهتمام.. حاولت التّقرّب منها أكثر لكنّني لم أفلح.. كانت مأساتي مسيطرة على كلّ عقلي.. أ تعلم؟ حينما تقابلنا لأوّل مرّة.. عرفت أنّها الفتاة الّتي لطالما تبلورت صورتها في مخيّلتي.. صورة الفتاة العربيّة المحترمة الّتي لا تضع نقابا لتخفي ملامح وجهها بل تضعه حتّى تستر ملامح شخصيّتها.. نقاب القوّة والعلم والثّقافة.. أتعرف يا فرانسوا؟ حينما أريد أن ألخّص مأساتي أستطيع أن أقول أنّها البحث عن المرأة العربيّة المثاليّة الّتي تفرض

على النّاس احترامها دون وضع حجاب يستر وجهها ولا لحاف يخفي جسمها ولا جلوس في البيت يمحو وجودها من العالم.. كما كانت أختي الّتي راحت ضحيّة جبروت وتعسّف والدي وكنت أنا السّبب! »

وبينما نحنُ جالسان نتحدّث إذ وقفتْ أمامي.. من؟ رُقيّة؟ ما الّذي جاء بها إلى هنا؟ تصافحنا وقُلتُ مبتسما:

« - هل وجودكِ هنا صُدفة أم هو مُدبَّر كذلك؟..

- في البداية أقدّم لكَ أختي مريم..

- سبقَ وتقبلنا أليسَ كذلك؟ قُلتُ مخاطبا مريم..

- أجل.. منذ شهر تقريبا.. لازلتُ أذكر ملامح وجهكَ.. كنتَ تجلس مع رقيّة في المكتبة حين أتيتُ أنا لأخذها معي إلى البيت..

- آه لقد تذكّرتُ.. ظننتكِ آنذاك صديقتها.. لم أنتبه للشّبه بينكما..

- إنّها لا تشبهني كثيرا.. هي مثلُ أبيها.. لكنّني أشبه أمّيّ..

- أبوها؟ »

قطع حديثنا صوت رُقيّة تقول:

« - لا تقلق يا صالح.. وجودي هنا كان بمحض الصّدفة.. كنتُ أتسوّق مع أختي وحينما عثرنا على هذه الحديقة الجميلة قرّرنا الدّخول لاحتساء فنجان قهوة دافئ.. فهل تُمانعان إن جلسنا معكما؟ »

أجاب فرانسوا..

« - طبعا لا.. لقد صرنا أصدقاء حميمين أليس كذلك يا صالح؟

- أجل.. ولقد قرّرتُ ألاّ أخفيَ عنكما شيئا.. »

فردّت مريم..

« - إذنْ أظنّ أنّهُ لا مبرّر لوجودي معكم.. »

فأجبتُها..

« - قطعا هناك مبرّر قويّ.. هو أنّكِ أختُ صديقتنا.. إلاّ إذا كنتِ لا ترغبين في أن تكوني صديقتنا أنتِ الأخرى..

- بلى.. إنّي أعتزّ بذلك..
- وأنا لا أمانع في أن تسمعي حكايتي.. »

* * *

حان وقتُ الغداء.. آنذاك قالت رُقيّة باضطراب واضح ونبرةِ مُتحسِّرٍ..

« - إنّ حِكايتكَ فعلا مؤثّرة يا صالح.. لكن هوّن عليكَ.. فلِكلّ مشكلة حلّ.. وثِقْ أنّ حلّ هذه المسألة في يدي. » ثمّ استعادت هدوءها وابتسامتها وقالت :

« - لكنْ ألا تتضوّرون جوعا؟ »

ردّ فرانسوا..

« - بلى يكاد الجوع يهلكني.. »

فقالتْ مريم بحماس..

« - ألا ترافقاننا إلى البيت؟ »

فأجبتُها مُعارضا..

« - بيتكما؟ لا نستطيع طبعا.. »

فردّت مريم مبتسمة..

« - اطمئنَّ أنا أقصد بيت عمّي.. إنّنا نسكن معه وعلى الأرجح أنّ زوجته قد طبختْ لنا اليوم كسكسيّا بلحم الضّأن.. ما رأيكما؟ »

قالت رقيّة وهي تقفز من الفرح..

« إنّها فكرة رائعة.. ستكون فرصة لفرانسوا حتّى يتذوّق هذه الأكلة التّقليديّة.. »

أخذت مريم مفاتيح سيّارتها وقالت :

« - هيّا بنا يا صالح.. ستركب رُقيّة مع فرانسوا في سيّارته.. »

واتّجهنا إلى البيت..

« - لا تندهش.. عمر رخصتي شهر واحد..

- حسنا.. أنا لستُ مندهشا لهذا السّبب.. لكن هناك سؤال يحيّرني منذ جلوسكما معنا في الحديقة..

- تكلّم.. أنا أسمعكَ..

- قلتِ لي منذ حين أنّكِ تشبهين أمّكِ ورقيّة تشبه أباها.. أليس كذلك؟
- أجل.. وأين اللّبسُ في ما قُلتُ؟..
- أكانت زلّة لسان كما يُقال أم أنّكِ تقصدين أنّكما لستما شقيقتين؟
- بالفعل.. أتعرف يا صالح أنّكَ ذكيّ جدّا ونبيه جدّا؟
- شكرا على المجاملة..
- لا أبدا.. أنا لا أجاملكَ ولكنّ دقّة ملاحظتكَ جعلتكَ تكتشف أشياء كثيرة في وقت قصير.. لقد ظننتكَ تعلم أنّ أبي ليس هو والد رُقيّة..
- ماذا تقصدين؟
- والد رُقيّة كان إنسانا جبّارا.. تصوّر! تركها وتركَ أُمّها ولم يمرّ على ولادتها أسبوع..
- ماذا؟
- لا وقتَ لدينا للحديث الآن.. لقد وصلنا إلى بيت عمّي.. هيّا بنا ندخل وسنواصل حديثنا بعد الغداء.. اتّفقنا؟ »

كانت متوسّطة القامة.. شعرها بنّي فاتح.. عيناها سوداوان.. أنفها دقيق.. كانت مرِحة.. نشيطة.. ذكيّة.. رشيقة.. زادتها سترتها البيضاء وتنّورتها السّوداء الطّويلة أناقة على أناقتها.. لم تكنْ تضع مساحيقا على وجهها الأبيض كالبدر.. وزادتها السّفيفة الحمراء في شعرها جمالا على جمال.. ابتسامتها ابتسامة تنمّ عن رقّة وبراءة وشراسة في آن معا.. براءة طفلة صغيرة وشراسة أنثى.. والنّظرة الّتي تشعّ من عينيها هي نظرة تختزل إصرارا وتحدّيا وقوّة وهدوءًا وأمانا.. وكلامها حين تتحدّث.. بليغ.. فصيح.. معقول.. منسّق.. منظّم.. كأنّما حفِظتهُ وجعلتْ تسرده.. لا تخطئ.. لا تتلعثمُ.. لا ترتبكُ ولا يتوه التّعبير عنها.. رغم أنّها خجولة.. من هنا تنبع قوّة شخصيّتها.. إنّها في عبارة واحدة.. رائعة!

دخلنا بيت العمّ عبد الله وزوجته زينب.. كان البهو فسيحا.. يختلط فيه الفرنسيّ بالعربيّ.. معماره فرنسيّ لكنّ أثاثه تونسيّ أصيل.. يتبيّن

جليّا لرائيه لأوّل مرّة أنّ صاحبه عربيّ أراد أنْ يطمس معالم الغرب بألوان شرقيّة وزخارف عربيّة وملامح أجداده القديمة.. أبواب فرنسيّة النّقش زرقاء اللّون ومدفأة مغطّاة بقماش طويل مخطّط.. وزربيّة قيروانيّة تستر أرضيّة الغرفة المزركشة بنقوش أجنبية.. ورغم الجوّ البارد.. كان الدّفء يعمّ المكان على رحابة البيت واتّساعه.. من أين تنبعث هذه الحرارة والمدفأة مطفأة ولا يبدو على صاحبه أنّه يستعملها؟ من كانون ينتحي ركنا قصيّا من الغرفة المغلقة الّتي جلسنا فيها..

اقتربت الخالة زينب يسبقها طبق القهوة مبتسمة قائلة :

« - يا مرحبا! يا مرحبا! تفضّلوا القهوة الآن.. لا تزال ساعة كاملة حتّى يجهز طعام الغداء.. »

شربنا القهوة وجلسنا مع العمّ عبد الله نتجاذب أطراف الحديث بينما انصرفت رُقيّة مع أختها إلى المطبخ لتساعدا أمّهما في إعداد الطّعام.. كانت القهوة ساخنة دفأتنا وزادنا حديث العمّ دفئا على دفئنا.. أو ربّما كان عليّ أن أقول « دفئا على دفئي ».. أخذ يحدّثنا عن طفولته بتونس.. فأعادني إلى ذكريات مرّت عليها سنوات..حتّى قاربت الاندثار من ذاكرتي.. أشعل في صدري دم العروبة حين حدّثني عن الحرب وعن أحداثها وعن مغامراته فيها.. ذكّرني آنذاك بوالدي.. حين كان يسرد عليّ أحداثها وأطوارها و مُلابساتها.. أين أنتَ أيّها التّاريخ الّذي كنتَ تستهويني؟ لقد صرتَ ظلاما.. لا أريد حتّى تملّي تفاصيلك.. ولا النّظر إليك حتّى.. أعدتني إلى أختي الّتي انهزمت بهزيمة العرب.. أعدتَني إلى تلك القرية.. إلى الصّهيون.. لا أريد أن أتذكّر.. لا أريد..

« - يا صالح.. يا ولدي.. ألا تسمعني؟..

- بلى أسمعكَ يا عمّي..

- أرى أنّ صديقكَ الفرنسيّ مهتمّ بالحكاية أكثر منكَ..

- فرانسوا؟ إنّه ليس فرنسيّا.. إنّه تونسيّ أكثر منّي.. »

ضحكنا و قهقه فرانسوا و قال :

« - اشـــرب.. اشـــرب قهوتـــكَ قبـــل أن تبـــرد إذن أيّهـــا الفرنسيّ..»

وبينما نحن منهمكون في الحديث والضّحك.. إذ بمريم تطلّ علينا بطلعتها البهيّة وتدعونا إلى مائدة الطّعام.. لقد حان وقت أكل الكسكسي!..

* * *

وهكذا ابتعدتَ عن سُكينة ومأساة سُكينة.. ابتعدتَ رويدا رويدا عن مُصابِكَ و اقتربتَ من الحياة وجمال الحياة ولُطفِ الحياة وابتعدتَ عن بشاعتِها ومُرّها وقساوتها.. ألهذا الحدّ يزيّن الحبّ الحياة يا صالح؟ حُبّ من؟ حُبُّ مريم؟ صرتَ تعرف الآن عمّها وزوجته وبيتها وكلّيّتها وأختها.. لكن ما هو السّرّ الّذي تخفيه عنّي؟.. « لقد ظننتُكَ تعلم بأنّ أبي ليس هو والد رُقيّة.. والد رقيّة كان جبّارا.. » ماذا تقصد يا ترى؟ لكن كيف تتركُ يا صالح ما جئت لأجله وتنصرف إلى العبث؟.. كيف تحبّ؟ أين ذهبتْ قسوتكَ؟ لِمَ طبّقتها إذن على والدكَ؟ إن لم تكنْ قاسيا لِمَ لمْ تره قبل موته؟ الأقدار.. كفاكَ هذيانا.. تلك هي الشّمّاعة الّتي نُعلّق عليها دوما كوم أخطائنا.. ألم تقطع على نفسكَ عهدا بالوفاء لسُكيْنة وبالانتقام لها؟ لكن كيف؟ كيف نغيّر مجتمعنا بأكمله؟ كيف نغيّر نظرة النّاس وتبدّل تفكيرهم؟ كيف سيقبلون خروج فتاة من بيتها بدون نقاب فضلا عن ذهابها إلى المدرسة وتعلّمها؟ خصوصا تلك القرية الّتي أحببتُ فيها طفولتي مع أبناء الكتّاب واللّعب على حافّة الوادي وكرهتُ فيها مقتل أختي.. صرتُ أرى كلّ شيء فيها قاسيا.. منفّرا.. غريبا.. حتّى الوادي دُفِنَ على حافّته جثمان أختي الطّاهر.. صار كلّ مكان فيها يذكّرني بالمأساة.. بجبروت والدي.. لن أعود إليها.. سأظلّ هنا مع مريم.. في فرنسا.. يا لكَ من خائن يا صالح.. تنسى بلدكَ وقريتكَ الّتي لم تتخلّص من الاستعمار إلاّ منذ أسابيع وتستقرّ في البلد الّذي حطّم بِلادكَ؟.. وتنسى سُكيْنة ومأساتها والنّذر الّذي نَذَرْتَهُ لروحها وتظلّ مع مريم الّتي ظهرت مؤخّرا في حياتكَ ولا تعرف عنها شيئا؟.. لا أستطيع المكوث هكذا.. لم أعرف لحياتي طعما حتّى عرفتُها.. لا يمكنني أن أبقى أسيرَ ميّتٍ هو مرتاح وأنا شقيّ.. الآن فقط صارت سُكيْنة ميّتة؟.. منذ أسبوع فقط كانت حيّة.. ماذا دهاكَ؟ أهو الحبّ يصنع المعجزات؟

« - هل نمتَ؟ » أطلّ فرانسوا برأسه من فتحة الباب..

« - لا أبدا.. أُدخلْ..
- جئتُ لأحدّثكَ في موضوع هامّ..
- خير إن شاء الله.. هل هو بخصوص رقيّة؟
- في الحقيقة هو يخصّ رقيّة و يخصّني أنا أيضا..
- ماذا تقصد؟ هيّا تحدّثْ.. لقد شوّقْتَني..
- حسنا.. لقد قرّرنا أنا ورُقيّة أن.. أن نتزوّج.. »

كان لوقْع الخبر تأثير كبير في نفسي.. لا أعرف مصدر تلك الرّعدة الّتي أصابت جسمي.. لم أملِكْ إلاّ أنْ أبتسم وأربِّت على كتفه والدّموع تملأ عينيَّ..

« - أتعلم يا فرانسوا؟.. لا أعرف ما الّذي جعلني أعتقد أنّ هذه الفتاة قريبة منّي جدّا.. لم أعرف بعدُ سرّ هذه الألفة الّتي بيننا.. لا تغضب أنا أقصد روابط أخرى غير الّتي تربطكما ببعضكما.. أُحبّ أن أقول مبروك وتهانيَّ الحارّة.. إنّني في قمّة السّعادة.. أخي الوحيد سيتزوّج أخيرا..
- شكرا يا عزيزي.. »

قال ذلك و ضمّني إلى صدره بحرارة.. حرارة عربيّة.. ربّما كانت موروثة عن باسكال..

« - و ماذا عنكَ أنتَ يا صالح؟
- ماذا تقصد؟
- أقصد قلبكَ.. ألم يهفُ إلى مريم؟..
- لا أعلمُ.. نسيتُ أن أقول لكَ عيد ميلاد عمّها في الأسبوع المقبل.. سيقيمون حفلة صغيرة بمناسبة بلوغه الخمسين من عمره.. هل ستذهب معي؟
- إن وافَقَتْ رُقيّة على ذلك.. » قال ضاحكا..
« - تصبح على خير وأحلاما سعيدة.. »

* * *

ومرّت أسابيع ثلاثة تقابلنا فيها مرّات عدّة.. لم تكنْ مقابلات مهمّة.. كنتُ أراها في الغالب صدفة مع أختها وأحيانا في المكتبة لكنّها مع ذلك

سكنت القلب بسرعة.. أحسستُ معها بأنّ الحياة جديرة بأن تُعاش.. ورغم أن الطّقس كان باردا وأنّ الجوّ كان مغيّما تُخيّم عليه مسحة من الحزن إلاّ أنّني كنتُ أرى في تساقط الثّلوج حنانا وفي نزول الأمطار دفئا وفي هبوب رياح الشّمال حرارة تسبّب لي قشعريرة هادئة أُحسّ معها بطعم الحياة وبرقّة الطّبيعة وبسكونها اللّطيف خاصّة في اللّيل حين أجلس قبالة النّافذة أرنو إلى النّجوم والبدر وأسطح المنازل يغطّيها بياض يزيدها هيبة ووقارا وكأن الدّنيا في يوم عرس.. في تلك اللّيلة كنتُ جالسا أتأمّل ذلك الجمال وإذ بصوت فرانسوا يناديني من غرفة مكتبه المجاورةِ لغرفتي.. هرولتُ إليه فوجدتُهُ ممسكًا بسمّاعة الهاتف ويبتسم ويقول :

« - اتّصال لكَ..

- لي أنا؟ كفاكَ عبثا.. لم يهاتفني أحد منذ دخلتُ بيتكم..
- احزر من على الهاتف..
- من؟
- مريم يا عزيزي.. تعال لا بدّ أنّه موضوع مهمّ! »

أعطاني السّمّاعة مستبشرا وغادر الغرفة مسرعا تارِكا إيّاي في حيرة من أمري لا أدري كيف أتصرّف.. مذهولا.. ما سبب هذا الاتّصال المفاجئ؟ تسمّرتُ ممسِكا بالسّمّاعة لا أدري ما أفعل.. تقذفني الأهوال وتتلقّفني الأفكار.. ثمّ رفعتُ السّمّاعة إلى أذني.. سمعتُ صوت أنفاسها.. فتحتُ فمي لأتكلّم منتظرا سماع صوتها..

« - آلو..

- آلو.. أين كنتَ يا صالح؟..
- أنا؟ ك.. كنتُ.. لا أعرف..
- لِمَ لمْ تؤمّ المكتبة كعهدك منذ يومين؟
- أنا؟ مـ.. من أعطاكِ رقم هاتفي؟
- ماذا؟ هل أزعجتُكَ باتّصالي؟
- لا.. لا أبدا لا إزعاج على الإطلاق!
- ما بكَ يا صالح؟ هل أنتَ مريض؟

- لا.. لا أبدا لستُ مريضا.. لكنْ.. ما رأيكِ أن نلتقي غدا في المكتبة؟..
- على السّاعة السّادسة مساء؟
- لا.. أريد أن أراكِ في الصّباح.. على السّاعة الثّامنة..
- لهذا الأمر اتّصلتُ بكَ.. أنا أيضا أريد أن أراكَ.. لي كلام كثير أريد أن أقوله لكَ.. تصبح على خير..
- وأنتِ من أهله.. »

أَقْفَلَتْ الخطّ وظللتُ أنا ممسِكا بالسّمّاعة متشبّثا بها وكأنّني لا أريد أن يفلت صوتها من أذني.. كان صوتها ملائكيّا.. أُنثويا.. رقيقا.. قويّا.. واثقا في آن واحد.. دالاّ على شخصيّة متوازنة.. بعكسي أنا.. أنا الّذي كنتُ أحاول عبثا أن ألتقط العبارات من بقايا ذاكرتي ومخيّلتي.. ضائعا لا أجد لمتاهتي مخرجا ولا تُسعفني الأقدار في ترتيب جملة مفيدٌ تركيبها تساعدني على مدّ جسور التّواصل بيني و بينها.. بيني وبين الفتاة الّتي قلبتْ كياني وحياتي وعقلي وجعلتني أنسى كلّ آلامي ومآسيَّ وأحزاني ولا أتذكّر إلاّ آمالي وأحلامي وطموحي إلى غد أفضل معها.. هي الملاك الّذي طهّر روحي من القسوة وعلّمني معنى الحبّ!..

* * *

ومضى اللّيل طويلا.. مُخيفا.. جوّ ماطر.. سماء شديدة العتمة لا ضوء لِقمر فيها.. إلاّ ضوء برق ظلّ بين لمعة وأخرى.. وصوت الرّعد يقصف وقُوّة الرّياح تكاد تجتثّ النّافذة من مكانها والطّقس بارد.. يا له من ليل طويل لا ينتهي.. اصطكّت أسناني وتكوّرتُ داخل الفراش وأمسكتُ باللّحاف.. انتابتني ذات الرّعدة.. كانت ذات الرّعدة الّتي انتابتني يوم صعِدتْ سُكينة إلى السّطح.. يومها خِفتُ على أختي.. لكنّني اليوم خائف من المجهول على نفسي.. هل سيقف القدر مرّة أخرى حائلا دون تحقيق سعادتي.. كما وَقَفَ يوم ماتت سُكيْنة ويوم مات والدي ويوم مات العمّ حسين صاحب الوكالة؟ و ماذا الآن؟ بعد كلّ هذا لماذا يُطاردني الدّهر أينما فررتُ؟ لماذا أرجُفُ؟ أهوَ ذلك السّؤال الّذي لطالما تبادر إلى ذهني؟ من تكون رقيّة؟ ومن تكون مريم؟ ومن هو

والد رقيّة؟ مالي انقلبتُ هكذا فجأة؟ ولماذا طلَبَت مريم مقابلتي غدا؟ أجال بخاطرها قلقي وحيرتي؟ لا بدّ أن أضع حدّا لهذه الوساوس.. هل سيأتي يوم غد؟ يوم غد سأعرف كلّ شيء عن مريم.. عن السّرّ الّذي تخفيه عنّي.. سأطلب منها أن تسرد لي كلّ ما تعرفه عن رُقيّة.. حتّى يرتاح قلبي ويهنأ بالي.. وغدا سيتحدّد مصيري معها..

وأشرقتْ شمس الصّباح.. شمس باردة لكنّها مضيئة نسي بطلّتها الجوّ غضبه وابتسم في وجه الخلق.. استيقظ صالح من نومه غير مصدّق أنّ تلك اللّيلة الطّويلة انتهت وعدّت بسلام.. بعد سُويعات قليلة يعرف صالح ما كان يأمل معرفته عن مريم ورُقيّة.. إنّها السّادسة والنّصف صباحا.. يجب أن يجهّز نفسه حتّى يذهب إلى المكتبة في الثّامنة.. حتّى يُقابل مريم.. لقد ظلّت تلك العبارة الّتي لفظتها في غفلة منها ترنّ في أذنه دائما « والد رُقيّة كان جبّارا.. » ماذا تقصد بذلك يا ترى؟ و لماذا أجعل من هذه العبارة قضيّة ومشكلة عويصة أو لغزا مُحيّرا؟ وما شأني أنا ورُقيّة وعائلتها والرّابطة الّتي بينها ومريم؟ ماذا يعنيني؟ لماذا أحسّ بشيء غريب ينتابني وكأنّني معنيّ بأمرهما؟ لماذا أحسّ أنّني مسؤول عنهما رغم أنّني لم أتعرّف عليهما إلاّ منذ بضع أسابيع؟ يجب تفسير هذه الأحاسيس عاجلا أم آجلا! لا بدّ أنّ هناك دافعا يجعلني أقِفُ من هاتين الفتاتين هذا الموقف الغريب.. تردّدتْ كلّ هذه الأسئلة في ذهن صالح قبل أن يذهب للموعد.. ماذا دهاكَ يا صالح؟ هل ستتراجع عن الذّهاب لمقابلة صاحبة السّرّ الدّفين؟ كفى سُخرية أيّها العقل.. قلبي لا يتحمّل هذه الآلام! أنتَ تقول لي أن لا شيء يربطني بمريم.. لكنّ قلبي يقول لي أنّ هناك أشياء كثيرة تربطني بها غير رابطة الحبّ.. أشياء أقوى بكثير لا أدري ما هي.. كلّ ما أعرفه أنّني سأطّلِع على هذه الأسرار الّتي تؤرّقني بعد لحظات..

دقّت السّاعة الثّامنة.. وقف صالح أمام المكتبة ينتظر قدوم مريم.. لكنّها لم تأتِ.. أخذتِ الهواجس تتلقّفه.. ما بِها لم تأتِ؟ ليس من عادتها أن تتأخّر عن مواعيدها.. ماذا دهاها؟ انتابه القلق وعاودته الأحزان وساورتهُ الشّكوك.. وبينما هو واقف هكذا بين أخذ وردّ.. إذ بها تظهر من بعيد في سيّارتها السّوداء.. ركنت السّيّارة أمامه على حافّة

الرّصيف.. فتحتْ بلّور النّافذة وألقتْ تحيّة الصّباح.. فهرول هو إليها مسرعا:

« - لماذا تأخّرتِ يا مريم؟..

- ماذا؟ إنّها السّاعة الثّامنة و خمس دقائق..

- ولوْ.. خمس دقائق تعني الكثير..

- هل اشتقْتَ إليّ إلى هذا الحدّ؟

- أرجوكِ كفاك سُخرية.. هيّا انزلي..

- لا.. بل اصعد أنتَ.. سنذهب إلى الحديقة الّتي عرفتكَ فيها لأوّل مرّة..

- تقصدين ثاني مرّة.. لأنّ المرّة الأولى كانت في المكتبة..

- ألم أقُلْ لكَ أنّكَ ذكيّ ونبيه؟ »

ركب صالح السّيّارة مهموما.. منزعِجًا.. وسيطر على نفسه صمتٌ مُطبق.. ثمّ نظر إلى مريم وقال :

« - هيّا أسرعي..

- ولِمَ أُسرعُ؟ ثمّ ألا ترى أنّ كلّ الشّوارع مكتظّة؟

- هل تتعمّدين اللّعب بأعصابي؟

- ألعب؟.. ما بكَ يا صالح؟ تبدو اليوم غير عاديّ.. هل يزعجكَ شيء؟ هل أنتَ غاضب منّي؟

- لا أبدا و لكنْ..

- يبدو أنّكَ لم تنَم جيّدا ليلة البارحة أو أنّكَ غير مرتاح للخروج معي هذا الصّباح.. إن أردتُ أُرَجّعُكَ إلى البيت.. واتّفق معي على أيّ موعد آخر يرضيكَ.. أو أنّكَ صرتَ تكرهني ولا تُطيق مرآي سأختفي من حياتكَ و سأتبخّر..

- لا يا مريم لا تقولي هذا مرّة أخرى إنّني كنتُ في أمَسِّ الحاجة لهذا الموعد..

- في أمَسِّ الحاجة؟ ولِمَ يا تُرى؟

- ستتحدّد مشاعري نحوكِ بإجابتكِ على عدّة أسئلة كثيرا ما طرقتْ أبواب ذهني..

- حسنا لقد وصلنا.. »

رَكنتْ الفتاة السّيّارة ونزلا ثمّ واصلتِ الحديث معه..

« - لم أفهم من كلامكَ شيئا.. تبدو هذا الصّباح مريبا وغامضا ومُخيفا وحديثكَ مبهم.. كأنّكَ لستَ صالحا الّذي عرفتُهُ..

- على العكس تماما.. أنا هو صالح الحقيقيّ.. إنسان مُشتّتُ المشاعر.. جَعَلَتْهُ الظّروف مُخطئا في أحاسيسه تجاه الآخرين.. القسوة الّتي زرعها أبي في قلبي وعقلي أبت أن تُنتزع بمرور الأعوام بل على العكس لقد تحوّلت إلى كتلة من المشاعر والأحاسيس المختلطة المُبهَمَة الّتي يصعب تمييزها..

- أجل.. لكنْ لم أفهم بعدُ ماذا تقصدُ..

- رُقيّة يا مريم.. رُقيّة..

- ما بها؟

- منذُ عرفتها وصورتها لا تفارق خيالي.. أحسّ أنّ هناك رابطا يشدّني إليها..

- لا تَقُلْ لي أنّه رابط الحبّ..

- لذلكَ كنتُ مُصِرّا على أن أطرح عليكِ أسئلة شغلتني حتّى أستطيع تحديد مشاعري وأعرف..

- ماذا تعرف؟ يا لها من مُصيبة! تحبّ رُقيّة؟ تحبّ.. ماذا أكون أنا إذن بالنّسبة إليكَ؟ مجرّد تسلية؟ لعبة تُضيّع بها وقتكَ؟ »

قالت هذا الكلام بعصبيّة وحملت حقيبتها وهمّت بالانصراف.. فاستوقفها صالح :

« - إلى أين أنتِ ذاهبة؟

- إلى مكان أجد فيه راحتي بعيد عن الخداع والنّفاق والتّملُّق..

- اجلسي يا مريم.. عهِدْتُكِ متفهّمة وهادئة..

- وهل ينفع الهدوء في هذه الحالات؟ وكيف تُريدني أن أتفهّم موقف من يظهر لي ولاءه لغيري؟ قُلْ لي..

- اهدئي يا مريم.. اعتبريني لم أقل شيئا.. انسي كُلّ ما قُلتُه لكِ..
- وكيف أنسى؟
- مادمتِ تريدين أن أكون معكِ إنسانا مُخادعا غير صادق في مشاعره سأكون كذلك..
- ولماذا؟
- ألم تريْ ردّة فعلكِ حينما حاولتُ أن أصارحكِ بالحقيقة؟.. ها أنتِ ذا تكرهين الصّراحة.. »

وضعت مريم حقيبتها على الطّاولة من جديد وانهالت على الكرسيّ قائلة :

« - أنا آسفة يا صالح.. ما كان عليّ أن أفعل هذا.. بالعكس كان عليّ أن أفرح.. لكنْ أنا كذلك معذورة.. إنّها ردّة فعل طبيعيّة لأنّني.. لأنّني..
- لأنّكِ تحبّينني أليس كذلك؟ قوليها ولا تخجلي.. أنا الآخر أحبّكِ لكنّني أحبّ رُقيّة أيضا..
- هل تحبّ اثنتين في وقت واحد؟ يا لرحابة قلبكَ!
- لا تسخري منّي أرجوك.. أنتِ الآن هنا لمساعدتي..
- مساعدتكَ؟
- أجل.. أريدكِ أن تسردي عليّ قصّة رُقيّة ووالدها..
- لا زلتُ لم أفهم بعدُ ماذا تريد بالضّبط لكنْ رغم ذلك سأحاول مساعدتكَ..»

* * *

رُقيّة فتاة قرويّة علّمتها قسوة الأقدار أن تصمد أمام ظلم الحياة.. لقد وُلِدت يتيمة الأب.. الأب! هذه الكلمة لم تعرف لها رُقيّة يوما معنى حقيقيّا.. كانت تلفظها لوالدي دون أن تحسّ بها.. رغم أنّ والدي كان يُعاملها مثل معاملته لي تماما ولا يميّز بيننا أبدا.. لقد سردَتْ عليّ رُقيّة حكاية أمّي مع العمدة..

كان عبد الجبّار عمدة القرية المجاورة تماما لقريتنا.. اسمه عبد الجبّار وهو اسم على مسمّى.. عانت أمّي منه الويلات السّبع.. تزوّجها لكي تنجب له ولدا.. لأنّ زوجته الأولى.. أظنّ أنّ اسمها.. محبوبة أو بهيّة أو بيّة.. أجل بيّة.. لم تنجب له إلاّ فتاة.. ظلّت أمّي تعاني من جوْرِه وظلمه وجبروته أربع سنوات حتّى طلّقها في الأسبوع الأوّل الّذي وُلِدت فيه رُقيّة راميا الفتاة في حضن الزّوجة البائسة متناسيا أن كانت له زوجتان واحدة منهما لا تزال في عهدته.. رمى بكلّ هذا عرض الحائط وراح إلى جارتنا فاطمة الّتي كانت معتادة على زيارة أمّي.. راح لها يتودّد و يتقرّب.. كانت جارتنا تلكَ أرملة ولها ولد من زوجها المتوفّي.. عمل العمدة جاهدا حتّى تزوّجها علّها تُنجب له الولد مثلما أنجبت للزّوج الأوّل.. ويا حسرة عليها.. ندمت هي الأخرى على تلك الزّيجة الّتي جعلت منها محلّ مهانة و ذلّ.. طلّقها هي الأخرى بعد أن أنجبت أُخْتَيْ رُقيّة زهرة وعائشة.. وعاد بعد كلّ ما فعل إلى زوجته الأولى وكأنّ شيئا لم يكن.. ظلّت أمّي حزينة بعد أن طلّقها فأخذت خالتي تواسيها وتخفّف من مُصابها.. حتّى مرّت على ولادة رُقيّة خمسة شهور تزوّجت أمّي بعدها سي حسن والدي الّذي عاش مع أمّي وعامل رُقيّة معاملة الأب لابنته.. عطف عليها و أحبّها كثيرا بقدر ما كان يحبّ أُمّها.. عوّض الفتاة اليتيمة المسكينة عن وجود الأب لكنّه لم يقدر على تعويضها عن حنانه رغم كلّ ما فعله من أجلها.. ربّاها أحسن تربية وظلّ معها ومع أمّي أربع سنوات حتّى وُلِد أخي أمين رحمه الله ثمّ وُلِدت أنا بعد سنتين فلم تغيّر ولادتي من الأمر شيئا.. وظلّ سي حسن كما هو.. أبي وأباها.. دخلنا المدرسة وتعلّمنا القراءة والكتابة وارتقينا سلّم المعرفة درجة درجة.. حتّى قدومنا إلى فرنسا.. والدي إنسان بسيط يعمل نجّارا.. لكنّ هذا لا يمنع أنّه محافظ ويهمّه كلام النّاس.. لم يكن قدومنا إلى فرنسا بالأمر السّهل أبدا.. كلّ الفضل يعود إلى الله وإلى عمّي عبد الله عند مجيئه إلى تونس منذ سنة ونصف.. عمل كلّ ما في وسعه حتّى يقنع والدي بذهابنا معه حتّى نتمم دراستنا.. لم يكن إقناع والدي إذّاك بالأمر السّهل.. « فرنسا الّتي نرى منها كلّ يوم الويل نبعث إليها بناتنا؟ مستحيل.. ليس المهمّ أن يكملا دراستهما.. مآلهما في

النّهاية مع أزواجهما.. المهمّ السُّمعة.. ماذا سيقول عنهما النّاس؟ سي حسن يرسل ابنتيه إلى بلاد الإفرنج؟ لن يكون هذا أبدا.. » يومها.. رأيتُ عمّي لأوّل مرّة يبكي.. « لقد فقدتُ حنان الأبوين منذ ولادتي.. وفقدتُ حنان الأخ منذ سافرتُ من ثلاثين سنة خلتْ وفقدتُ حنان الابن منذ توفّي ولدي في الحرب.. ألا تريدني أن أحسّ ولو قليلا بحنان الأسرة؟ أريد أن أرى بيتي يضمّ عائلة ولو لبضع سنوات.. » بهذه الكلمات فقط وافق أبي على مضض أن نسافر.. ورغم أنّه يعلم أنّ عمّي سيعتني بنا هناك مع زوجته إلاّ أنّه لم يكن مطمئنّا..

هكذا كان مجيئنا إلى فرنسا.. وهكذا دخلَتْ رُقيّة كلّيّة الطّبّ و دخلتُ أنا كلّيّة الآداب لأدرس علم النّفس الاجتماعي.. كان كلّ طموحي أن أفهم سرّ تعامل النّاس مع المجتمع ومع المقربين إلى أنفسهم.. سرّ تصرّفات العمدة مع زوجاته.. نفسيّته وظروفه الّتي جعلت منه شخصيّة مزدوجة.. إذ يُقال عنه أنّه كان طيّبا وعادلا ومحبوبا من جميع النّاس في القرية.. في حين كان على عكس ذلك تماما.. شرسا.. ظالما.. متجبّرا مع زوجاته.. وعرفتُ كلّ شيء.. لقد ترسّبتِ العقليّة الشّرقيّة الموروثة وأنتجت تفكيرا متحجّرا.. هو التّفكير في من سيخلفه.. الولد! كان إنجاب الولد همّه الوحيد في الدّنيا ولو أنّه أنجبه مع بيّة.. لما كان متشدّدا هكذا في معاملته مع النّساء.. أو قُلْ ربّما لما تزوّج بعد بيّة.. وزاد على كلّ هذا تواتر هذه المصيبة.. ماذا تتوقّعون منه؟ كيف ستكون ردّة فعله بعد إنجابه لأربع فتيات دون إنجاب الولد الّذي يطمح له؟ أعتقد أنّ النّسوة هنّ سبب مصيبته لذلك صار يكرههنّ بما في ذلك بناته.. تخيّل! لم يخطر بباله ولو يوما واحدا أن يسأل عن أحوال رُقيّة ولا عائشة ولا زهرة.. الحمد لِلّه أنّه أنجب في النّهاية الولد.. لا بدّ أنّه تغيّر بعد ذلكَ.. أمّا فيما يتعلّق بتفسير عدله وطيبته مع بقيّة النّاس فإنَّ تلك هي شخصيّته الحقيقيّة الّتي عمل جاهدا على أن لا تندثر حتّى يحافظ على مكانته داخل المجتمع.. ليس هناك تفسير آخر لتصرّفاته.. صالح.. صالح.. ما بِكَ يا صالح؟.. أتبكي؟ »

* * *

لماذا يا رُقيةّ؟ لماذا لم تُخبريني أنّكِ أختي؟ أنتِ تعرفين الحقيقة منذ اليوم الّذي حكيتُ لكِ فيه حكايتي هنا في هذا المكان لماذا جعلتِني أتعذّب كلّ هذه المدّة؟ لقد داخلني الشّكّ يومئذ.. نبرة صوتكِ فضحتْ اضطرابكِ.. وتلك العبارة الّتي قُلتِها « ثِقْ أنّ حلّ هذه المسألة في يدي.. » لم أفهم كُنْهها إلاّ الآن.. لماذا يا والدي غرستَ في قلبي تلك القسوة؟ لماذا جعلتني تائها لا أهل لي.. وأهلي موجودون.. كلّ أخواتي كنّ في حاجة إليَّ.. لِمَ لم تُعلِمني بذلكَ؟ ولِمَ لمْ تُعْلمني رُقيّة بذلك؟ إنّني أكاد أُجنّ..

« - ما بكَ يا صالح؟.. أعرفُ أنّ الصّدمة كانت قاسية عليكَ.. لكن كان يجب أن تعرف..

- هل كنتِ أنتِ الأخرى على علم بالحقيقة وأخفيتها عليّ؟..

- كان لا بدّ أن أفعل ذلك.. كان لا بدّ أن أتدرّج في إخبارِكَ لئلاّ يحدث لكَ مكروه..

- منذ اليوم الأوّل الّذي تقابلنا فيه في المكتبة انتابت رُقيّة نفس شُكوكَكَ وعَرَضتْ عليّ الأمر وبعد أن سردتَ لنا حكايتكَ أدركَنا الحقيقة فحاولتُ أنا بطريقتي أن أُدخِلَ الشّكّ في قلبكَ حتّى أُهيّأ الميدان لِتَقبّل الصّدمة..

- و لماذا انفعلتِ حينما علمتِ بحبّي لرُقيّة إذن؟

- لأنّني كنتُ خائفة عليْكَ..

- و من قال لكِ أنّني صرتُ قادرا على تقبّل الصّدمة؟ إنّ عقلي يكاد ينفجر..

- مَهْلَكَ يا صالح.. لِمَ أنتَ حزين؟ الأجدر بك أن تفرح.. لقد وجدتَ من سيُعوّضكَ عن فقدانكَ لسُكيْنة ستجد في وجه كلّ واحدة من أخواتكَ سُكينة أخرى.. لكنّكَ هذه المرّة لن تتسبّب في مأساة جديدة بل ستنتشلهنّ من المأساة.. ستنقذهنّ من الظّلام.. ستخرجهنّ إلى النّور..

- لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل لولاكِ يا عزيزتي..

- لولا أنّني أحبّكَ لما فعلتُ كلّ ذلك من أجلكَ.. عليكَ الآن أن تذهب إلى رُقيّة وتأخذها بين ذراعيكَ.. لا تنسَ أنّكَ أخوها الوحيد.. إنّها في حاجة ماسّة إليْكَ.. وكذلكَ زهرة وعائشة.. أتذكر يوم كنتَ تقول أنّ الانتقام لسُكيْنة هو الوصول إلى السّراب؟ الآن صار في وُسعكَ أن تثبتَ أنّ السّراب الّذي كنتَ تراه ما هو إلاّ عين ماءٍ جارية تستطيع أن تلمسها بيديكَ وتشرب منها حتّى ترتوي.. وهل ترى ذلك الضّباب الّذي يعمّ المكان؟ سيضمحلّ وتنزاح غشاوته باشتداد حرارة الشّمس.. وبعد المطر والجوّ الكئيب.. سيرتسم قوس قزح في السّماء باسطا ألوانه الجميلة على الكون.. ».

* * *

أخذ صالح بيد مريم.. تشبّث بها.. وسارا جنبا إلى جنب يحدوهما الحلم الجميل.. واضعَيْن نصب أعينهما قوس قزح مُبشّرا بشروق يوم جديد..